

بين الصراع والتعدد

obeikandi.com

يخطئ الفكر الإسلامي المعاصر خطأ جوهرياً عندما يناقش موضوعاته ومشاكله^(١) بعيداً عن الإطار العام لها ألا وهو الذاتية الإسلامية وصراع الحضارات .

إن ما يحكى عنه بعض الكتاب عن اعتراف الإسلام بتعددية الأديان أو تعددية الحضارات ، إنما هو نوع من الخلط أو الإبهام .

فالتعددية التي جاء الاعتراف بها في الإسلام إنما هي تعددية الأمر الواقع ، وليست تعددية الأمر التكليفي ، أو ما ينبغي أن يكون .

تعددية الأمر الواقع في الأديان كما في قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

تعددية الأمر الواقع في الشرائع كما في قوله تعالى — وهو يصدد توجيه الرسول ﷺ في التعامل مع أهل الكتاب : — ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَتَكُمُ شُرْعَةً ، وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وهي تعددية الأمر الواقع في الحضارات في قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

تعددية الأمر الواقع بين إيمان وإسلام وإحسان في جهة ، وكفر ونفاق وفساد ومعصية في جهة أخرى ، وليست تعددية الأمر التكليفي المطلوب ولا تعددية الأمر الذي ينبغي أن يكون .

ففي الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

(١) مشكلة الاقتصاد والتربية والاعلام والجهاد ... الخ .

﴿ قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين تاراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً . ﴾ ٢٩ الكهف ، ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . ﴾ ٩٨ مريم .
 وفي الأمر الذي ينبغى أن يكون ليس إلا شريعة واحدة بين الأنبياء جميعاً .

ولا تختلف بين نبي ونبي ، ورسالة هنا ورسالة هناك إلا اختلافاً عارضاً - بحسب الاختلاف فيها بين عالمية ومحلية ، وخالدة ومؤقتة -
 اختلافاً لا يستحق الخلاف " كما يفيد ذلك قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . ﴾ .

وفي الأمر الذي ينبغى أن يكون ليس إلا حكم الله وحده ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . ﴾ ... ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ ... { فأولئك هم الظالمون . ﴾ .

وفي الأمر الذي ينبغى أن يكون ليس إلا حضارة واحدة ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ... ﴿ ولينصرن الله من ينصره . ﴾ .. ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون . ﴾ .

الاختلاف الموضوعي بين الحضارتين :

وعلى هذا الأساس - من الاعتراف بذاتية الإسلام - علينا أن نعترف بأن هناك تناقضاً بين النسق الإسلامي - أو بتعبير آخر بين الحضارة الإسلامية - والحضارة التي تسمى " غربية تارة ، وأوربية تارة ، وعالمية تارة أخرى " .

وهو إذن تناقض موضوعي : تماماً كما يكون التناقض بين المحافظة على " ذات " في مقابل المحافظة على " ذات " أخرى .

ويخطئ من يظن أن هذا التناقض - أو الصراع - يرجع - فحسب - إلى ثأر تاريخي ، أو كراهية انفعالية متبادلة أو إلى سوء الفهم ^(١) بين الجانبين .

كلا ليس الأمر كذلك .

ليست القضية أننا طرناهم من الشرق الأوسط قديماً ، حيث هو في نظرهم قد كان مستعمرة أوربية : يونانية ، ثم رومانية ، لقرون طويلة ، ثم قضى عليها الإسلام .

وليست القضية أننا طرناهم - كما يعتقدون - من الجزيرة العربية ، تلك التي يقول عنها القس الشهير " زويمر " : " إن للمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربية ؛ - نعم هكذا - أو طبقاً لقول القس جيمس كاتنين مؤسس الإرسالية الأمريكية عام ١٨٨٩ (إن من واجبنا أن نعيد (!!) هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية) .

ليست القضية أننا أنزلنا المسيح إلى منصب النبوة ، وحرمانه مجد الألوهية .

وليست القضية أنهم ضربونا بقبضات شديدة استمرت قرنين فيما يسمى الحروب الصليبية .

وليست القضية أنهم افتروا على الله الكذب وشتموا رسول الله ، وهتكوا مقدساتنا ، وقذفوا أمهاتنا وكتبوا في أعراضنا ما لم يكتبه " اليهود " عن " مريم " .

وليست القضية أنهم طردونا من الأندلس ، أو أزاحونا من على حدود فرنسا ، أو أزحقوا وجودنا في مناطق من أوربا الشرقية وشمال البحر الأبيض المتوسط ..

(١) بل الأمر على العكس .. وسنبين في هذا الفصل والذي يليه أن القضية ليست قضية

سوء فهم منهم أو سوء عرض منا ...

وليس القضية أنهم يسفحون دماءنا في إفريقيا ، وأوروبا ، ويقطعون
شراييننا في آسيا ، ويتركونها تسفح أنهاراً وجداول ..

وليس القضية أنهم أخرجوا فلذات أكبادنا من فلسطين ويستوردون
إليها من لا يكادون يعرفون أكثر من أسماء قبائلهم ممن يسمون " الفلاشا " ..
ليست القضية ذلك فحسب .

لو أن القضية كانت ذلك - فحسب - لجاز لبعض أبواقهم أن يخذروا
وعينا بكلام عن نسيان الماضي ، وتصفية الأحقاد ، واستقبال النظام العالمى
الجديد " بأيد متشابكة وقلوب مفتوحة " ..
كنا ...

إن التناقض بين ذاتية الحضارة الإسلامية ، وذاتية تلكم الحضارة
الغربية ، أو " الأوربية " ، أو " العالمية " تناقض موضوعى تحركه النظرة إلى
المستقبل ، أكثر مما تحركه مواريث التاريخ ، أو عقم الحاضر ...
تناقض يتحرك بطبيعته من كونهما حضارتين متنافستين على
"المستقبل " .

حضارتين تتصف كل منهما " بالعالمية " ...
فالإسلام دين " عالمى " وحضارة عالمية .

وهذه الحضارة - الغربية - تعلن على الأضهاد أنها حضارة " إنسانية"
وتصدر إلى أنحاء العالم قيمها ومفاهيمها فيما تسميه " الديمقراطية "
و"حقوق الإنسان " و" قرارات مجلس الأمن " .
حضارة أخذت تدس أنفها فى كل دولة ، ومدينة ، وشارع ، وزقاق ،
وبيت ... "

أخذت تقول : نعم ، وتقول : لا ، فى شئون السياسة والاقتصاد ،
والتربية ، والاعلام ، والحرب ، والثقافة والرياضة ، وأوقات العمل ، وأوقات
الفراغ ..

وهي تتسرب بكميتها تلك تحت شعار " العالم الذي أصبح كقرية " عن طريق : الخبر ، والجندي ، والكمبيوتر ، والقروض ، والمنقديات ، والمؤتمرات ^(١) ، ومراكز البحوث ، والسلام الزائف ... " .

وهي مستعدة لإدخال كلمتها عن طريق النظريات المزيفة عن " نهاية التاريخ " ، وفوكوياما ، أو عن طريق كلمة وقحة لمأجور مؤتمرات يقول لك: أنت تأكل خبزهم فيكيف ترفض " هُم " !

نعم

نعم ، حضارة تزعم أنها إنسانية ، عالمية ، والإسلام رسالة عالمية أيضاً .

ومن هنا كان التناقض شيئاً غير قابل للنسيان .

كان التناقض بين حضارتهم وبين الإسلام - كدين وحضارة - تناقضاً موضوعياً ، ومعركة على " المستقبل " .

وللاسف فإنهم يدركون هذه الحقيقة أكثر مما ندركها نحن ...

فهم أساتذة " تاريخنا " الذي نتعلمه منهم ...

وهم أساتذة الاجتماع والنفس ..

وهم أساتذة الاقتصاد ...

وأساتذة الفلك والفضاء ...

وهم أساتذة الاستراتيجية ، والسياسة ، والحضارة ...

هم يدركون بمقتضى استاذيتهم لعلم الحضارة : أنه لا مكان في العالم

لحضارتين " عالميتين " ... إلا أن يقع بينهما تنافس ، وتزاحم ، وتنافس ،

وتآكل في الحدود ، وصراع على محل " القلب " ..

(١) أنظر مقال محمد حسنين هيكل الذي تضمن بياناً عن معركة تطويع العقل المصري

لقبول الصلح مع إسرائيل ، وكيف انفق الغرب على هذه المؤتمرات في مدى عامين

أو ثلاثة ما يساوي " تكاليف حرب كبرى : جريدة الخليج ١٩٩٦/٥/٢١ .

وإذن فسيلعنهم تاريخهم إن تركوا فريستهم - نحن - بعد أن اصطكت
الركب ، وناخت الأقدام ...

إنهم يدركون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يلعبون " الآن " الدور الأخير
في معركتهم مع هذه الحضارة " الإسلامية " ليقدفوا بها إلى مكان سبق أن
قذفوا إليه " الهنود الحمر " !!

هم يدركون هذه الحقيقة ويعلمون - أكثر مما علموا عن الهنود
الحمر- أنهم يتعاملون مع حضارة " عاتية " دوختهم واستعصت عليهم - في
وقت أصبح فيه وراثت هذه الحضارة في أضعف حالاتهم وأحط أحوالهم ..
ولذا فإن ضعفنا لا ينسيهم خطورة حضارتنا ، ولا ينسيهم خطورة
انبعاث هذه الحضارة مرة أخرى .

إن ضعفنا - الذي يعيرنا به أفراد منا يسيلون بكلماتهم كما يسيل
الحوض بالماء النازل فيه - هذا الضعف لا ينسيهم قصوائية المعركة التي
تدور ، ولكنه يسيل لعابهم لضربتنا الضربة الأخيرة ، وللقضاء علينا القضاء
النهائي .

إنهم يعتقدون أنهم أمام الفرصة التاريخية التي إن أضاعوها فسوف
تدور الدائرة عليهم من جديد .

لذا

فإنهم يصفوننا جغرافياً ، ويصفوننا جسدياً ، ويصفوننا تاريخياً ،
ويصفوننا حضارياً ..

يزهقون قطرات الدم الأخيرة من عروق حضارتنا من حقيقة ذاتنا .
من جوهر وجودنا .

إنهم يدركون أن المعركة معركة حضارية موضوعية بين حضارتين
عالميتين تتقاتلان على " المستقبل " .

ومن هنا فإنهم يلعبون معنا اللعبة بوجه جامد ، وعصب بارد ،
وبسمة " المشفق " على " الذبيح " .

كأنه يقول : لماذا تتعب نفسك ، وتتعبنا معك ، فأنت قدرنا ، ونحن لا نتركك .. فتعال ساعدنا على أن ندخلك أحضان القناء .

إنهم يقتلوننا ، نعم .

وهم يقتلوننا بإشفاق ؟

نعم !!

لأن نظرتهم إلى القضاء علينا نظرة موضوعية !!

تماماً كالذى يذبح شاة ..

ويربت على وجهها ، وربما ... يقبلها ، ثم يذبح !!

هكذا حالهم معنا ، وهكذا حالنا معهم !!

يقتلوننا بالمذاهب الفلسفية ، وبالروح العلمية ، ومناهج البحث .

يقتلوننا ويستغربون : لماذا لا نُقتل ؟ !

وللأسف - الذى يصل إلى حد الكارثة - ينخدع البعض منا ببسمة

القاتل ، فينهضون إلى مساعدته بهددة الذبيح .

نعم ؛ ولقد ساعدناهم ، وساعدناهم من قبل كثيراً .

ساعدناهم بالاعتداء على ذاتية الإسلام .

ساعدناهم بتفكيك النسق الإسلامى .

وساعدناهم بتزييف " الكلمات " و " المصطلحات " الإسلامية .

أفهمونا أن العرب قد جاء إلينا من أجل " الاستعمار " .

وابتلعنا الكلمة ، وقد كان الصحيح أن يقولوا إنه جاء إلينا من أجل

" الاستخراب "

وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرايبهم - هو من أجل " القطن " ،

للتشغيل مصانع النسيج فى يوركشاير ؟

والآن ماذا بعد " القطن " ؟

وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرايبهم - هو من أجل قناة السويس .

والآن ماذا بعد قناة السويس .. ؟

وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرايهم - قد جاء من أجل البترول .

والآن - أو بعد الآن - ماذا يكون بعد البترول ؟ !

" تعمية " على الهدف فى عملية الصراع الحضارى ؟!

ذلك أنه قد كان لنا - وما يزال - زعماء فكرهم خريجو كلية فكتوريا،

والميردى ديبه ، وقهاوى باريس ، وشارع الشانزلزييه ، وقبعات التخرج فى

عقر جامعاتنا !!

فلم يكن لفهم - وهو ممتلى بشرابهم - أن ينطق بأن القضية صراع

حضارات .

وعندما ظهرت الكلمة بعد أن انكشف الغطاء - فى صراعنا معهم -

عن التأخر الحضارى الذى " نتمتع " به ، ... بعد أن ظهرت الكلمة وأنها "

صراع الحضارات " ، جرى تزييفها مرة أخرى فقالوا : هو صراع حضارى

؛ ولكنه يعنى أن " نتحضر " مثلهم .

أن نعيش كما يعيشون .

ونلبس البذلة كما يلبسون .

ونحلق الذقن كما يحلقون .

ونأكل بالشوكة كما يأكلون .

أن نتحضر بمثل ما يتحضررون .

وليتهم أرادوا من ذلك أن نأخذ من حضارتهم " الوسائل " التى تعيد

الحياة إلى حضارتنا ، والقوة إلى " وجودنا " ؛ والسلامة إلى " نسقنا " !!

لا

ولكنهم يهدفون إلى أن نخسر حضارتنا ، ونعيش بحضارتهم .

أزاحوا الفهم الصحيح لحقيقة صراع الحضارات وأنه صراع

يدور بين حضارتين تتمتع إحداهما - اليوم - بالسيادة على العالم ، وتزوى

أخرهما فى جمود .

صراع بين حضارتين ، إحداهما يمكن أن نسميها " إنسانية " بحق !!
أى يستقل بها الإنسان فلسفة وتوجهاً ، وتطبيقاً ، وأخرى " إسلامية " إلهية !!
نعم : فالإسلام دين حضارة ؛ وقد وضع حجر الحضارة الإسلامية
على الأرض فى تلك الزاوية التى كتب عليها قوله تعالى ﴿ إني جاعل فى
الأرض خليفة . ﴾ .

فالحضارة وفقاً للمفهوم الإسلامى مراد إلهى ، يصنع وفق التكليف
الإلهى ، ويقام حضارة مقابلة تتصف بالإنسانية دون " الإلهية " ، هو إعلان
لمعركة حضارية موضوعية بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة .
لن تنتهى هذه المعركة فى تصورهم إلا بإيادة الإسلام وحضارة
الإسلام .

ولن تنتهى فى تصورنا إلا بصنع الحضارة وفقاً للتكليف الشرعى .

رؤية تاريخية للصراع :

فى ظل هذا التصور عن الصراع الموضوعى المستقبلى بين
الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية يصبح من الطبيعى أن تستحضر
المنظرة الماضوية عن هذا الصراع من أجل تجنيدها فى معركة لا مفر منها .
الحروب الصليبية :

سقوط الأندلس ...

سقوط الدولة العثمانية ...

تفكك القوميات ...

هجوم الاستعمار ..

زرع العلمانية فى قلب الأمة وأحشائها .

الهجوم الصريح على الإسلام ...

ترييف الإسلام ومحاولة صنع ' الإسلام الجديد ' الذى أوصت به
مؤتمرات التبشير .

ترييف فى الاقتصاد . ، فى التربية فى اللغة ، فى الأدب ، فى الفن
فى الأخلاق ...

وصولاً إلى تشويه الذاتية الإسلامية ثم القضاء عليها فى معركتها الأخيرة :

زحفاً من الشمال بكتيبة إسرائيلية ... أو صربية ..

وزحفاً من الجنوب بكتيبة تنصيرية... أو وثنية ...

وإطباقاً فى النهاية على مصر .

ثم الجزيرة !!

وهنا تنتهى - فى حساباتهم - الحروب الصليبية !

لكن هل ينتهى التاريخ ؟!

قائمة سوداء غليظة السواد ، منقوعة فى السم ، ملطخة بالدم ،

مصنوعة من الأثلاء ...

والحق أن عداءهم لنا لم ينشأ مع ظهور الإسلام - وإن كان قد

تضاعف معه - ولكنه كان قبل الإسلام ، ومع قوة الإسلام والآن ..

أتعرفون ماذا قال هيرودت عن طريقة جمع أحجار الأهرامات ؟

أتعرفون كيف اغتصب اسم " مصر " على أيديهم فصار إيجبت بينما إسم

مصر هو هو منذ وجود الهيروغليفة والعبرية والفينيقية والآرامية

والأشورية ؟

أتعرفون كيف أطلقت أكذوبة " مصر هبة النيل " لتحرم المصريين

من شرف العمل والكفاح والجهد الذى كان وسيلة ترويض هذا النيل وتهذيبه

والاستفادة منه ؟

كم من شعوب مر عليها النيل فلم يجعل منها هبته ؟

إنهم هم المصريون الذين اضطهدوا على يد الفتح الاسكندرى (اليونان

- البطالمة) ثم على يد الرومان حتى تخلصت مصر من اضطهادهم على يد

الإسلام ؟

وصل اضطهاد الرومان للمصريين والتكثير بهم الذروة في عصر الامبراطور - دقلديانوس (٢٨٤ م) فكانت أول سنة من حكمه مبدأ اتخذها المصريون لتقويمهم المعروف بتاريخ الشهداء أو التقويم القبطي ؟

ثم استمر الاضطهاد بعد ذلك أربعة قرون تقريباً كانت حصيلتها نشأة الرهبانية وفرارها إلى جبل المقطم وغيره من الصحارى وإنشاء الأديرة ؟
وجاء الإسلام فأرجع إلى مصر اسمها وأمنها وسلامها وحرمتها ؟

ولم يكن العرب غرباء على مصر قبل الإسلام : اسألوا الجيولوجيا يقول لكم إن صحراء مصر الشرقية جزء من التكوين الخاص بالبلاد العربية، والبحر الأحمر ليس إلا أخدوداً أو شقاً بين الجانبين .

واقرءوا سورة الفجر لتروا كيف جمع القرآن الكريم بين العرب البائدة ومصر (عاد وثمود ... ومصر) .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . ﴾

عداؤهم لنا بين سوء العرض وسوء الفهم :

ليست القضية أن المسلمين هم المسئولون عن عداة الغرب لهم ، حيث يسيئون عرضهم للإسلام ...

ولكنها على العكس من ذلك ، أنهم في الغرب يتجاوزون سوء العرض هذا ويذهبون إلى عمق علاقتهم بالحضارة الإسلامية ؛ باعتبارها خطراً موضوعياً على حضارتهم . إنه من السطحية والسذاجة - إن لم يكن من التآمر - أن يظن البعض منا أن المسألة ترجع إلى طريقة عرض الإسلام... وتنتهي المشكلة .

وإقائه في كل دين ، وفي كل مذهب ، وفي كل نظرية ، وفي كل أيديولوجية هناك من يسيء العرض ، ولا أحد من الجادين يتوقف عند أولئك

الذين ينبتون على هامش هذه الأديان والمذاهب ممن يسنون العرض ؛ جهلاً
أو قصداً

فى المسيحية هناك من يسئ العرض .

وفى الديموقراطية هناك من يسئ العرض .

وفى الليبرالية هناك من يسئ العرض .

وفى الاشتراكية هناك من يسئ العرض .

ولا تكون هناك نهاية المطاف .

ويبتلى الإسلام بمن يسئ العرض من المبشرين والمستشرقين

والجهلاء ..

تماماً كما هو الحال مع غيره ، لكنه هو وحده الذى يقولون عنه :

لولا سوء العرض ...

يا سادة : لا تضيفوا إلى سوء العرض سوء الظن ...

يا سادة : إن فى الغرب رجالاً يحققون ، ويدققون ويذهبون إلى

المصادر الأصلية ، كعلماء وخبراء وفلاسفة ، واعلاميين

فما هى القضية إذن ..

ليست القضية إذن قضية سوء فهم ، أو سوء عرض ..

فما هى القضية إذن ؟

القضية أنهم هناك يدركون الخطر الموضوعى الذى يأتيهم من انبعاث

الحضارة الإسلامية مرة أخرى ، ثم يذهبون يشوشون على منطلقاتهم

وأهدافهم ويستأجرون العملاء من سماسرة الثقافة والاعلام ليشتبعوا مقولات

ساذجة تبعدنا عن أصل المشكلة وتضللنا عن جوهر القضية .

وإلا فقولوا لنا هل كان أرست رينان متأثراً بسوء عرض الجهلاء منا

للإسلام وهو يقدم كراهيته للإسلام فى ذورته الأكاديمية :

إذ يقول فى خطاب افتتاحى فى الكوليج دو فرانس حول تصنيف

الشعوب السامية فى تاريخ الحضارة ... الشرط الأساسى لتمكين الحضارة

الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ماله صلة بالسامية الحقبة : تدمير سلطة الإسلام الليبروقراطية ، لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمي ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردى فإنه سينقرض . هذه الحرب الدائمة، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسا ، أو يرغمه الارهاب (!!) على أن ينتبذ في الصحراء مكاناً قصياً .

الإسلام هو النفي الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار العلم ، القضاء على المجتمع المدني ، إنه سذاجة الفكر السامى المرعبة ، يضيق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلانى ، ليضعه أمام حشو سرمدى : " الله هو الله "

المستقل هو إذن لأوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم ، وتنتشر فيه الدين الذى هو الحق، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بأن ثمة شيئاً ما إلهياً فى صلب الإنسانية . (١) .

أو فقولوا لنا لماذا يكتب " باول شمتر " مثلاً فى كتابه " الإسلام قوة الغد العالمية " - قبيل الحرب العالمية الثانية - ليحذر من تواكب الحركة الإسلامية مع الحركة القومية الإسلامية " وما يمثل ذلك من خطر محقق بالغرب !!

يقول المؤلف (إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربتنا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه . هل يسمع الهتاف أحد ؟ إلا من يجيب (٢) .

حتى أنه يقلل من أهمية افتقاد العالم الإسلامى للتقدم التكنولوجى فى هذه المعركة التى ينفذ قومه بها ، إذ يقول (من الممكن أن يعارض المرء

(١) كتاب " الإسلام اليوم لمارسيل بوازار " بحث الحبيب الشطى الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى ووزير خارجية تونس الأسبق ص ٣٤ - ٣٥ طبعة ١٩٨٦ - اليونسكو .

(٢) " الإسلام قوة الغد " ترجمة د. محمد عبد الغنى شامة ص ٣٥٦ .

هذا الرأي .. فإن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجي الحديث . ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامي ما فاتته في هذا الميدان ، إذ لا تحتاج العلوم الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الامام بها والتفوق فيها الخبرة وتوجيه الخبراء ، ومن المؤكد أنه غالباً ما يحدث أن تكون حضارة ذات منزلة عالية في التقدم التكنولوجي .. هي أقل درجة من حضارة أخرى لم تبلغ تطورها بعد في هذا المجال ما بلغته الأولى ، إذن فهناك احتمال كبير في أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه في الناحية التكنولوجية ضعيفة سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد .. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامي ما تعلمناه في مجال التكنولوجيا ، وفي مقابل هذا : سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية التي فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها . (١) .

ويبنى المؤلف تحذيره على ما يلمسه من مصادر القوة التي يملكها العالم الإسلامي ؛ وهي : الموقع الجغرافي ، والخصوبة البشرية ، والثروات والمواد الخام والدين الإسلامي (الذي له قوة سحرية على جميع الأجناس البشرية تحت راية واحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته ، بكل ما يملك مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء حتى روحه .. يحرص على التضحية بها فداء لأوطان الإسلام .) .

ثم يتساءل : (أي قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم في الشرق ؟) ثم يجيب (قوة الوحدة الفكرية للإسلام ، ووجود الإحساس الحى للدين الإسلامي ، فهو ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى) .

(١) المصدر السابق ص ٣٥٦ .

بل إنه ليستشعر الخطر من مجرد أداء المسلمين لفريضة الحج واتجاههم إلى القبلة في صلواتهم .. إذ يقول (إن اتجاه المسلمين نحو مكة - وطن الإسلام - عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين ، وأسلوب يضى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الإسلامى طابع الوحدة ، وصفة التمسك .) (١) .

بل إن ناشر الكتاب الألمانى يقدم له بهذه العبارة (باول شمتز عاش فى القاهرة عدة سنوات ويعرف جيداً الأسس التى ينبثق عنها تطوع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذى يعد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الإنسان فى أوربا بكل بساطة ، وفى غير اكترات ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (قبيل الحرب العالمية الثانية) فى جبهة موحدة معادية للغرب ... وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدى من أجل مصالح الغرب وحدها (٢) .) .

هكذا

فهل كتب باول شمتز ما كتب لما وجده من سوء عرض للإسلام يرتكبه بعض الجهلاء من هنا أو من هناك ؟ !!!

أو فقولوا لماذا نشر المفكر الأمريكى " صامويل هانتجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد كتابة المعروف باسم (صدام الحضارات) وفيه يبشر لصدام مستقبلى هائل بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة فى الثقافة الأوروبية الأمريكية الغربية من ناحية ، وبين الديانات والثقافات القديمة .. لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكثر قدر من التركيز لأنها - كما يعتقد - ستكون أولى تلك الحضارات القديمة وأقدها على الازدهار وتحدى الغرب قريباً .. ولذلك يقول الرجل : يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل

(١) المصدر السابق ص ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١ .

هذا ، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخرى ، خاصة الإسلامية قبل أن تكتمل .) .

وهناك دراسة أخرى نشرتها مجلة الايكونومست البريطانية في ٨ يناير عام ١٩٩٤ ، ركزت على أن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين أمامهما فرصة البزوغ ، بل الصدام مع الآخرين : هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة (١) !

وها هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية — ريتشارد نيكسون : يدرك السمة الحضارية للإسلام ، حيث يقول (إن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو أساس حضارة رئيسية ، إننا نتحدث عن العالم الإسلامي بصفته كياناً واحداً — ليس لأن هناك مكتباً إسلامياً يوجه سياساته ، ولكن لأن الدول منفردة تشترك في اتجاهات سياسية وثقافية مشتركة مع الحضارة الإسلامية ككل .) (٢) .

فهل فهم نيكسون ذلك من سوء العرض للإسلام ؟

ثم يقول ريتشارد نيكسون : (للعمل في العالم الإسلامي فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعى من سم النزاعات الأيديولوجية والصراعات الوطنية) (٣) .

والمدعش أنه يعترف بعد ذلك بأن بعض الأمريكيين (يتغاضون عن حقيقة أن الإسلام لا يشمل مبدأ إرهاب وأن ثلاثة قرون قد مرت منذ أن انشغل المسيحيون في حروب دينية في أوروبا .) (٤) .

ثم يعترف بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوروبا في العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي ، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلوم والطب ، والفلسفة ، وفي كتابه

(١) مقال صلاح حافظ - الخليج ٢٥/٢/١٩٩٤ .

(٢) انتهزوا الفرصة - ترجمة حاتم غانم ، طبعة فبراير ١٩٩٢ ص ٤٠ .

(٣) انتهزوا الفرصة ص ٤٥ .

(٤) انتهزوا الفرصة ص ٤٣ .

"عصر الإيمان" لاحظ ول ديورانت أن الإنجازات الهامة في كل الميادين قد تحققت على يد مسلمين في هذه الفترة ، وكان ابن سينا أعظم الكتاب في الطب ، والرازي أعظم طبيب ، والبيروني أعظم جغرافي ، وابن الهيثم أعظم صانع للألات البصرية ، وجابر أعظم كيميائي .. وكان العلماء العرب فاعلين في تطوير الفكرة العلمية .. وعندما دفع الرجال العظام من عصر النهضة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة .. فقد رأوا أكثر لأنهم وقفوا على أكتاف العملاقة من العالم الإسلامي . (١) .

ثم يقول ريتشارد نيكسون (إن حضارتنا ليست متفوقة على حضارتهم الموروثة ، إن شعوب العالم الإسلامي كانوا أكثر مقاومة لجاذبية الشيوعية من مقاومة أولئك في الغرب ، وإن رفضهم الواسع للمادية وثقافة الغرب الأخلاقية المسموح بها - أي في الغرب - رجعت عليهم بالفضل .) .

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ م - كما يقول نيكسون - فإن العالم الإسلامي تقدم وتفوق على العالم المسيحي فيما يتعلق بالقوة الجيوبوليتيكية ، ومستوى المعيشة ، والمسئولية الدينية ، وتقدم القوانين ، ومستوى تعلم الفلسفة ، والعلوم والثقافة .

ثم يرجع انحسار الحضارة الإسلامية إلى انتصارها في الحروب الصليبية ، كما يرجع تفوق الغرب إلى انهزامه إذ يقول (إن عقوداً من الحرب قلبت الطاويلات ، وكما كتب ديورانت : إن الغرب خسر الحرب الصليبية ، لكنه ربح العقائد (!!)) ، وتم طرد كل محارب مسيحي من أرض اليهودية والمسيحية المقدسة (كذا !!) . لكن الإسلام استنزف نتيجة انتصاره المتأخر ، ودمر وخرب على يد المغول - بالمقابل - في عصر من ظلام الغموض والفقر ، بينما المهزوم مدفوعاً بالجهد ونسيان الهزيمة تعلم كثيراً من عدوه ، ورفع الكاتدرائيات في السماء ، وعبر بحور العقل ، وحول لغاته الجديدة إلى لغة دانتي وفيلون ، وتحرك بروح معنوية عالية إلى النهضة (٢) .

(١) ص ٤٣ .

(٢) انتهزوا الفرصة ص ٧٦ .

فهل كتب نيكسون ما كتب تحت سوء عرض منا للإسلام .

وحين أصدر جان بييرك ترجمته لمعاني القرآن عام ١٩٩٠ نجده يبرر اهتمامه بتقديم معاني القرآن للغرب بقوله (لأن الكثير من المفكرين والناس الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ، ويرفضون مجتمع الاستهلاك ، هذا المجتمع المادى المحض .. ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها) ، ولما كان قد قدم في ترجمته للقرآن الكريم معاني القرآن مشوهة فكأنه أراد أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار، لأنها فقدت الأساس الروحي والأخلاقي .. يريد أن يقول لهم : وهذا هو الإسلام أيضاً ملئ بالخرافات والتناقضات .. (١) .

أما جان بييرك نفسه فيكاد يلتمس لنفسه العذر فيما يكون قد حدث من مخالفة في ترجمته للقرآن الكريم بالرجوع إلى وجوب الأخذ بالمنهج التاريخي إذ يقول : (يبقى صحيحاً القول بأن الديناميكية الدينية ذاتها تتطور عبر التاريخ - ليس في مبادئها وأصولها بالطبع ، ولكن في صياغتها وأشكالها وتطبيقاتها ، فتلك أشياء خاضعة للتأقلم والتطور وتختلف باختلاف العصور والأزمات) (٢) .

ومن الواضح لدينا أن استثناءه (المبادئ والأصول) من عملية التأقلم .. الخ ، ليس إلا تغطية لفظية للهدف ، الذى هو إيصال الديناميكية الدينية التاريخية إلى (صياغة) المبادئ والأصول ، وما ذلك إلا صياغة كلمات الله تعالى ما دمنا بصدد ترجمة القرآن الكريم !

وهذا المنهج التاريخي هو المدخل " الحديث " لنسف أصالة المسلمات الإسلامية .

(١) مقال رجب البنا ص ٩ ، الأهرام ١٩٩٤/٣/٦ .

(٢) الأهرام ١٩٩٥/٧/٢٩ .

فهل ذهب جان بيرك إلى ذلك نتيجة سوء فهم أوسوء عرض .

أهو سوء عرض منا ذلك الذى جعل منصرفاً مثل : بروس ج. نيكولز
يدرك حقيقة الإسلام بدقة يغبط عليها حين يقول :

إن الإسلام هو أكثر من عقيدة دينية ، إنه نظام متكامل للحياة والدين .
فالإسلام يدمج كل المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على
أسس الإيمان والافتتاح والالتزام بقبول الله رباً ، والاستسلام كلية لإرادته ،
ثم يستمر قائلاً :

(إن مركز الابداع فى الإسلام هو التوحيد ، أى الشهادة بأن لا إله
إلا الله ، والتوحيد يعنى أن الله هو الخالق أو السبب الجوهرى لكل الوجود
والنشاط ، ويؤكد أن الإنسان هو المسئول عن تحقيق إرادة الله) .

ثم يستمر قائلاً (ففى المؤتمر الإسلامى الدولى الذى عقد فى لندن فى
نيسان (أبريل) ١٩٧٦م حول " الإسلام وتحديات العصر " ، تم تقديم الإسلام
كنظام متكامل من القيم ومصدر إلهام لكل منجزات العلم والدراسات الإنسانية
والمصدر الوحيد الراسخ للإيمان والسلوك .) (١) .

كيف يمكن القول إذن بأنهم يحاربون الإسلام لأنهم لم يفهموه .

إنظروا مثلاً إلى الفهم الصحيح للإسلام الذى يقدمه المنصر كينيث أ. كراج
عن الإسلام ، حيث يقول :

(دعونا نواصل الحديث عن الجسور ، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة
من الإيمان بالخلق : " هو (الله) الذى يقول كن فيكون " ، إن الخلق المبدع
هو لله والأرض الطيبة كذلك ، والتى ينظر إليها على أنها مسكن الإنسان
ومجال نشاطه و"الأمانة" التى حملها ، والإنسان هو " خليفة " الرب فى "حكم"
النظام الطبيعى ، وهو فى ذلك مسير بإرادة إلهية ، وتفهم الغاية الإلهية

(١) أنظر كتاب " التصير : خطة لغزو العالم الإسلامى " وهى تضم مجموعة أعمال

المؤتمر الذى عقد عام ١٩٧٨ بـكولورادوا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرته

دار MARK ، ونشر بالعربية ص ٢١٤

بالنسبة للعالم من خلال تسخير الإنسان الفلاح والزارع والتقني والفنان والعالم الذي يمتلك ويستكشف ، ويستغل العالم بتقويض إلهي ، كما أنه يكون مسؤولاً عن أعماله هذه أمام الرب ، فالإنسان مخلوق أدنى من الرب ، وهو عبد للسلطة الإلهية ، وخليفة ومندوب في مواجهة الطبيعة .

من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح في وجه كل ما من شأنه أن يتعدى على الكرامة الإنسانية والمجال الإلهي ، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة والبيئة ، والمسؤولية عن الموارد والعدل الاجتماعي والتراحم ، بل بأكثر من هذا ، والقرآن (سورة ٢ : ٣٣ وما بعدها) يرى أن الشيطان هو رأس الاتهام، فيجد أن اعتراض على خلافة الإنسان ، ثم تمرد على الرب لنفس السبب ، فإن هدفه التاريخي هو إغواء البشر وتشتيت وإفساد العمل البشري والثقافة حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنساني ، وهذه الموضوعات مثيرة جداً ، وإذا كان من الواجب " أن فدع الرب يكون رباً " يجب علينا كذلك " أن نجعل الإنسان يكون إنساناً " . ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدى كما يطلق عليه الإسلام ، والذي يسترشد به الإنسان في أزمة مصيره عبر التاريخ ، ومن هنا أيضاً جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذير وتوجيه الاستجابة البشرية ، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء في التاريخ لا تختلف كثيراً عن مرامى أمثلة المسيح عن الكرم والكراميين والرسول ، فخصوصية مهمة اليهود غير واردة ، ولكن مسؤولية الإنسان أمام الرب في تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة في المفهوم الإسلامي للخلق، وفي مكانة النبوة المتميزة في التاريخ .

هنا تبرز بالطبع بعض العقبات ، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخرى لمخلوقية الإنسان الأساسية ، والتي تساعدنا في مهمتها ، فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هي بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات، وهذا اللفظ موجود في كل صفحة من صفحات القرآن تقريباً ، إن

الآيات تُشد الانتباه ، وهذا هو أساس العلم كله فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف ، ثم يسخر الظواهر الطبيعية ، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز فى تشجييعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة ، ونحن ننحنى لنتنصر ، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة ، بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التى طرحها على الطبيعة "والتي" قامت بالرد عليها .

غير أن اليقظة التى تتطلبها هذه الآيات هى أكثر بكثير من كونها عقلانية . (.)

ثم يقول : (إن النفور الموروث لا يزول بسهولة ، وكثيراً ما يؤكد القرآن على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه ، فالقرآن ليس ظلمساً قصد به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار ، كما تدعى ذلك فئة من الأخبار ، ونحن لن نقدم إذا درسنا وتتبعنا جدياً القرآن ، ومن ثم اكتشفنا الوجهة التى يقودنا إليها ، ويتسخير كل ما لدينا من صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن ننتبه إلى جدياً القرآن ، وهذا شئ كان من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل جداً .)

ثم يقول : (وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح ، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً ، لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله ، والإنسان ، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة فى وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التى أنيط بها النظام السياسى منذ الهجرة ، ويأتى بعد ذلك نمط الحياة اليومى (الصلوات اليومية الخمس والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الاجتماعى فى الأمة الإسلامية ، وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوى التقاليد التى تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال ، فالإسلام واثق بأن التشريع فى القرآن والرحمة فى المجتمع والسنة التى يمكن أن تحتذى والانضباط فى الأنماط الاجتماعىة

والرعاية التي يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامي ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله

إن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولاً من جديد المسيح المصلوب ، وهنا فإن الكتاب المقدس الذي يدعو إلى أن عيسى هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكرهية الراسخة في الإسلام لهذا المفهوم ، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التي نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقيدية التي ينبغي توضيحها .

انطلاقاً من مقطع هام في القرآن (٤ : ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى في اللاهوت الإسلامي ، فإن الإسلام يرى :

- أ - أن المسيح لم يصلب .
- ب - أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث .
- ج - أن الصلب لا حاجة له أن يحدث .

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخياً ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقي كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدي .

ثم يقول : (فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغي أن يتعذب بهذا المعنى الذي يتضمن عجز الرب في الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا ابنه !) . ومن هذا المنطلق فإن الرب " يودع قدرته " في حقيقة أن المسيح لم يمت علوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق في شيء . فالقرآن يقول ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (سورة ٦ : ١٦٤) . إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنوب ارتكبه ، (ب) ، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هي فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد .)

ثم يقول : (ولكن هل هذه المعاناة التي تتفدى الإنسان ضرورية للقدرة الكلية الإلهية ، فالإسلام يقول أن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته

والقرآن يؤكد : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٨٢:٣٦) . وهذا يعنى أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد ، ولهذا فإن فكرة " المخلص " الذى " مكن " الرب من أن يغفر لنا توحى بالعجز الربانى ، فهل يحتاج الرب أبداً " للمساعدة " من أجل تحقيق إرادته ؟ وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جداً فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع فى مفاهيم خاطئة ، ما هى الطريقة التى يمكن أن نوضح بها " ضرورة " الصليب باعتباره شكلاً ومضموناً للتقديرة الربانية فى المغفرة ؟ هل يمكن لمغفرتنا - إذا جاز التعبير - أن تكون مشكلة الرب ؟ (١) .

إذن فالأمر فى دائرة التنصير لا يرجع إلى سوء الفهم ، أو سوء العرض ، ولكنه يرجع إلى ما يقول جورج بيترز فى بحثه بعنوان " نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين " .

(إننى أميل إلى الاتفاق مع فاندر وزويمر وفريتك وآخرين فيما ذهبوا إليه من الإسلام حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق البشر لمقاومة إنجيل ربنا يسوع المسيح ، إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية ، وترفض بكل وضوح موثوقية وصحة الإنجيل وأبوة الرب ، وأن المسيح ابنه ، وضرورة موته وكفايته لمفهوم الخلاص ، وتبرير بعثه . إنه الخلاف الأكبر فى النصرانية وفى الكتاب المقدس أملاً فى الخلاص .

ولكن محرك هذا الخلاف هو الإسلام وليس النصرانية وفى ذات الوقت فالنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً ، ويفوق فى ذلك النظام الشيوعى (!!) ، ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تحبط عزم

(١) أنظر المصدر السابق .

من ص ٢٧٤ إلى ص ٢٨١ .

المنصرين ... (ثم يقول : (إن الإله الموجود فينا !! أعظم الإله الموجود في العالم ، وأعظم حتى من الإله الذى يتحدث عنه الدين الإسلامى .) (١) .

فأين القضية إذن ؟

هل ترجع كما يشيع البعض إلى سوء الفهم أو سوء العرض ؟
وأنظروا ما جاء عن العداوة المغرضة التى تصل إلى جذور البرامج الدراسية فى الغرب : وقولوا لنا : هل تقررت بدافع سوء عرض منا للإسلام.

يقول مارسل بوزار : (فى الولايات المتحدة الأمريكية تنهت لجنة من جميعة دراسات الشرق الأوسط الكتب المدرسية برداءة الاعلام عن الإسلام ، وبالأخطاء فيما يتعلق بالوقائع التى تتضمنها عن المسلمين ، نتائج التحقيق الذى قامت به اللجنة مفزعة .. كتب التاريخ العام المدرسية تخصص عموماً ٨ ٪ على أبعد تقدير من محتواها للشرق الأدنى والأوسط ، معظم هذه المادة غير كافية ، فضلاً عن أنها تعالج أساساً الحضارات القديمة ، حضارات بلاد الرافدين ووادى النيل ولا تتحدث عملياً عن تاريخ الثقافة الإسلامية ، ومن جهة أخرى : محررو هذه الكتب المدرسية يُظهرون مثل المدرسين مسيقات كامنة ، معززة بتحرير ناقص ، وبحث قليل الدقة وبتقديم غير سديد ، وهكذا فإن التلاميذ الأمريكيين عندما سئلوا لم يجيبوا عن الإسلام إلا كدين وكثيراً منهم زعموا أنهم لا يعرفون المسلمين إلا فى منظور حركة المسلمين السود " بلاك مسلم " .

وأجريت مؤخراً دراسة أخرى محددة جغرافياً بمنطقة واشنطن استنتج منها أن ١٥ ٪ فقط من الكتب المدرسية المتوافرة يمكن أن ينصح بها كأدوات تربوية ، أما الانتقادات الرئيسية فهى الآتية : -

(١) المصدر السابق : التصيير خطة لغزو العالم الإسلامى من ص ٥٤٩ إلى ص ٥٦٨ .

- فلما قدم الإسلام كأحدى ديانات التوحيد الكبرى في العالم .
- حوكم للتاريخ والحضارة العربية بميزان المعايير العرقية
الخالصة .

- استخدمت قوالب فظة ، مقدمة في أسلوب تحقيري لوصف
حضارة العرب. (١) .

وفي الكتب المدرسية الفرنسية :

يخص الرسول ﷺ الذي مازال يكتب بطريقة مغلوطة : -
بنوعيت قيمة محددة .

محمد النقيير يشعر بالأمن بفضل زواجه .

وخلال سفره التقى بيهود ونصارى .

ويتكربسه أوقات فراغه للتأمل حصلت له رؤي " على طريقة الأنبياء "

وقرر التبشير : بـ " الرب - الله . " .

أخرج من مكة فظل مشغولاً باسترجاعها .

منذ البداية التجأ للعنف .

مكنه فئة في قيادة الجموع (!!) من توحيد أنصاره الذين زرع فيهم

روح التعصب ووعدهم بالجنة إذا ماتوا في سبيل " الحرب المقدسة " .

أما تقديم الإسلام - في تلك الكتب المدرسية فإنه يجمع جميع القوالب:

التعصب ، الخضوع ، الإهمال ، الاستسلام .. إلخ .. الإيمان الإسلامي ليس

جديداً - قلد واستعار كثيراً ، خاصة من اليهودية ، عقيدته هي من أكثر

العقائد بساطة ، وممارساته الثقافية محدودة جداً .

(١) أنظر كتاب " الإسلام اليوم " لمارسيل بوازار ، ترجمة ونشر اليونسكو ، ص ٢٢ إلى

الفتح العربى يوصف دائماً بـ " الصاعق " كتاب مدرسى واحد أشار إلى أن دوافع التوسع لم تكن دينية حصراً ، أما بالنسبة للكتب الأخرى فتفسير ذلك هو فى الجبلة الحربية للعرب الذين أعمتهم رغبتهم فى فرض الإيمان على الكفار .

تضيف إلى ذلك بعض الكتب : الضعف الداخلى للدول التى ستفتح ، ورغبة البدو فى الخروج من الصحراء الحارقة للاستيلاء على المدن . أدت الحرب المقدسة إلى صراع رهيب بين الصليب والهلال ، سبب المسلمون (الذين يسمون سراسنة) خراباً مخيفاً فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأخيراً عندما يعالج مؤلفو هذه الكتب الثقافة الإسلامية لا يخشون الوقوع فى التناقض : بينما الحرب المقدسة قضت بالاختفاء على كل فرد غير مسلم .. نجد أن اليهود والمسيحيين فى الأراضى المفتوحة هم الذين كان لهم نصيب الأسد فى ميلاد الحضارة الإسلامية ، هذه الأخيرة التى ليست سوى اقتباس : خليط وانتحال .. طابعها الجوهري هو افتقاد الأصالة .. لدرجة أن بعض الكتب المدرسية فى تمارينها - التى من المفروض أن تشغل فكر التلميذ النقدي - تطلب فى سؤال إيحائى أن يشرح : (فى أى مجال تفتقد الحضارة الإسلامية الأصالة ؟) .

كل شئ فيها تقليد : العلوم الطبيعية والإنسانية ، الفن ، الأدب ، وحتى المعمار ، - وهو مجال يعترف فيه للمسلمين - عادة - بالتفوق - ليست حسب الكتب المدرسية سوى تقليد .

وفى التعديلات التربوية الأخيرة التى أعدت فى فرنسا بيدو الإسلام كتقافة ماض " مشرحة " وكدين للفقراء ، تمت مماثلته مع العمال المهاجرين غير المتخصصين : لم تعد صورة المجتمع صورة قوة تناحرية خطيرة ، كما تستخلصها الكتب المدرسية القديمة ، بل هى بالأحرى شبيهة بصورة حضارة ميتة تصدر يدها العاملة .

هل يعود السبب لتبرير إيديولوجي ؟ أم لتأثيرات عرقية ؟ أم لقصور مؤلفي الكتب المدرسية ؟ يظل السؤال مطروحاً ، لكن مما لا شك فيه أن ظلماً دائماً أنصب على الإسلام والمسلمين . (١) .

إننا نؤكد أن هؤلاء عندما يختارون موقع العداة للإسلام وحضارته ، ويصفونه بوكر الأفعى ، كما فعل نيكسون ، فإن ذلك لا يرجع فى الأعم الأغلب - كما يشيع البعض - إلى سوء عرض منا ، أو سوء فهم منهم ، ولا يرجع إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من تخلف ، أو ما عليه حال بعضهم من تطرف ، ولكنه يرجع إلى اختلاف جذرى فى أصول كل من الحضارتين ، وفى الوقت الذى يدركون فيه ذلك يدركون تحرك كل منهما نحو العالمية ، فيجعلهم ذلك يفزعون إلى خططهم المدروسة فى الإساءة إلى الإسلام ، وتشويه صورته عمداً ، وبكل ما يملكون من وسائل الدفاع عن الذاتية الخاصة .

وشهد شاهد فى جريدة عصرية ، يقول :

(لا أعتقد أن الأحداث سبق أن تدافعت وتراكمت على الأمة العربية فى شكل سلسلة من التحديات المعقدة والمرهقة بمثل ما جرى فى الآونة الأخيرة .

حتى يبدو الأمر وكأننا قوم مستهدفون من الشرق والغرب على حد سواء .

وأنه بينما يعم المجتمع الدولى بأسره موجة من التفاؤل

فى ظل الوفاق العالمى بين القوتين ... فإن الأمر يبدو مغايراً تماماً فى عالمنا العربى (٢) الذى هبت عليه رياح التناؤم وتولدت فى ربوعه

(١) مارسيل بوزار : " الإسلام اليوم " ص ٢٦ - ٢٩ .

(٢) ولو أدرك جواهر القضية لقال الإسلامى : أنظر أفغانستان ، وباكستان والقابيين ، وقبرص وأريتريا ، وجنوب السودان .. إلخ .

أحاسيس القلق ، من مجرد رصد ما هو قادم إلينا وما يجري تصديره لأوطاننا، بدءاً من هجرة اليهود السوفيت ، ومروراً بمحاولات تغيير الأوضاع القانونية لمدينة القدس (١) ، ووصولاً إلى النوايا الرامية لإبقاء بؤر التوتر على حالها كأنها أشبه بسرطان ينخر في جسد الأمة ، سواء في لبنان أو في الخليج ، إضافة إلى ما يجري في الضفة والقطاع من ممارسات بربرية يشيب لها الولدان (٢) .

ويشهد رئيس تحرير الجريدة فيقول .

(كان انزعاجنا شديداً ونحن نتحدث عن هجرة اليهود السوفيت إلى الأرض العربية المحتلة في إسرائيل .

وكنا محقين في انزعاجنا وتحسبنا للأخطار ، رغم أننا كنا نتخوف من هجرة عشرات أو بضع مئات الألوف ، وبعد أقصى نصف مليون مهاجر إلى إسرائيل خلال خمس سنوات .

الآن ماذا نقول وماذا نفعل وقد تكشفت الخيوط ، واتضح معالم الصورة (٣) فإذا بما كنا نتخوف منه من قبل لا يمثل إلا أقل القليل مما نتوعدنا به من مخاطر هذه المؤامرة الكبرى (٤) .

إنه فهو خروج يهودي كبير آخر ، يذكرنا بالخروج اليهودي من أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الثانية الذي اتجه إلى فلسطين الجريحة عام ١٩٤٧ وساهم في صنع نكبتها ..) .

(إن القضية ليست قضية مخاطر تهدد شعب الضفة وغزة فقط ، ولا الشعب الفلسطيني ككل ، وإنما قضية مخاطر تهدد الدول العربية كلها .. بعضها مهدد بالخطر عاجلاً والآخر لن يتأخر طويلاً .) (٥)

(١) يشير إلى قرار الكونجرس الأخير باعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل .

(٢) مقال بالأهرام ١٩٩٠/٤/٥ ص ٨ .

(٣) معالم الصورة كانت واضحة منذ قيام إسرائيل في خريطتها من النيل إلى الفرات !!

(٤) إنها كبرى منذ الأنتلس إلى تركيا إلى إسرائيل ..

(٥) الأهرام ١٩٩٠/٤/٦ .

ويقول الصحفي الكبير صلاح الدين حافظ بعد رحلة إلى أمريكا : (إن
الاتحياز الأوربي الأمريكي للمسيحيين في " الشرق " عامة ، وفي " مصر " خاصة ، ليس حياً لذواتهم ، ولكن تحت تصور أنهم سلاح تفكيك لوحدة الأمة وعنصر طعن ضد الأغلبية .

ويقدر ما هناك في الغرب الأوربي الأمريكي من نقد أحياناً للإسلام والمسلمين ، فإن هناك أيضاً نقداً واضحاً لأقباط مصر على وجه الخصوص ، وحين تسامنا بعجب جاءت الإجابة أكثر عجباً .. ذلك أن أقباط مصر مازلوا يرفضون الاتحياز " الأعمى " للمسيحيين " الأوربيين والأمريكيين ، ويفضلون بقاءهم كجزء من قوميتهم المصرية ، ومن حضارتهم العربية ..) .

ثم يقول صلاح الدين حافظ :

(علينا أن نستشرف المستقبل ونستعد له .

والمستقبل الذي أراه - بتواضع شديد - هو الذي سوف تعود فيه حركة التاريخ إلى الصدام التاريخي القديم .. صدام الغرب الأبيض مع الشرق الملون (١) .

خاصة إذا نجحت خطة تفكيك الاتحاد السوفيتي الجارية الآن ، لأنها تمثل التجربة الأولى وبعدها تتوالى المحاولات .

صراع المستقبل لن يتركز حول صراع الأيديولوجيات السياسية الذي ساد خلال نصف القرن الأخير بين الماركسية والرأسمالية .

ولكن صراع المستقبل سوف يكون صراع قوميات (٢) ، وديانات (٣) حيث الاستقطاب سيكون حاداً بين حضارات الغرب البيضاء الحديثة ، وبين

(١) عفواً ليست معركة ألوان في جرعة تريفن أخرى .

(٢) محشورة حشراً .

(٣) صح النوم !

حضارات الشرق وديانته القديمة ، بما فيها حضارات اليابان والصين والهند ،
والعرب والأفارقة ، مرة أخرى صراع ديانات وقوميات .) .

ويقول الكاتب السياسى الأستاذ محمد سيد أحمد عما يدور حالياً بيننا
وبين الغرب (هل هى صيغة عصرية للحروب الصليبية ؟) معلقاً بذلك -
فيما ينقله عنه الدكتور محمد عصفور على الأخطار الكامنة فى المخططات
الأوربية ، لأنها تطرح صورة للمواجهات عن منطقة البحر المتوسط توحى
بأنها بين أوروبا المسيحية من جانب والصحوة الإسلامية من جانب آخر ، وأن
أوروبا المسيحية أصبحت تستخدم الدولة اليهودية درعاً لها فيما سوف يبدو
لغرب عديدين صيغة عصرية للحروب الصليبية على مشارف القرن الواحد
العشرين ، وأن هناك مشاعر مكبوتة عارمة وإحساساً طاعياً بالإحباط عم
أمتنا العربية بأسرها وأن مخططات السلام لا بد وأن تبدو فى مثل هذا السياق
مؤامرة صليبية صهيونية تستهدف تجريد الأمة العربية من روحها ومن
هويتها .

وقد نيه الأستاذ محمد سيد أحمد إلى أن المؤسسات الأوربية ليست
فقط بصدد ضم إسرائيل إليها ، بل إنها فى الوقت نفسه تعمل من أجل حث
الأقطار العربية على التسليم بدور متميز لإسرائيل فى المنطقة ^(١) .

فليقولها صريحة : صراع ديانات أو حضارات !! دماء مسفوحة فى
قدس الذاتية ؟ صح !!

هكذا قلنا منذ مطلع هذا القرن !

وهكذا ندفع اليوم فاتورة الحساب !

أسف : لم نقلها نحن منذ مطلع هذا القرن ، ولكن قالها قوادهم
ومخططوهم ، وسياسيوهم ، ومؤتمراتهم ... !!

(١) انظر جريدة الوفد ٥/٨/١٩٩١ ، والأهالى ١٣/٧/١٩٩١ .

قالها القس زويمر ، والقس جيمس كاتنتين ، والقس ينغ ، والقس
اكسفولد ، والقس سيمون (١) .

وقالها ويليام جيفورد ويلجراف في المؤتمر التبشيري بلكنو (متى
تؤارى القرآن ومكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربى يتدرج فى سبيل
الحضارة (!!!) التى لم يبعدها عنه إلا محمد وكتابه .) .

وقالها اللورد هانوتو (إن الدين الإسلامى يبعث فى الإنسان الخمول
والكسل ولا يوقظه منهما ، وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن
الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق
وسارت على منهاج أوربا علماً ومدنية نجحت .) .

قالوها ثم جاءت سلسلة الأحداث لتصدق ما قالوا :

فى تركيا ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وقبرص ، وفى شرق
أوربا فى بلغاريا ، ويوغوسلافيا ..

وفى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، وفى الفلبين ،
وكشمير ، وأندونيسيا ، وفى نيجيريا وأريتيريا وتنزانيا وجنوب السودان .. إلخ
وفيما يحدث للمتحجبات فى فرنسا ، وبريطانيا (!!)

لكن هل وصلنا بهذا إلى القاع الذى لا قاع بعده ، وعندئذ لم يبق إلا
الصعود كما يقول أصحاب التغيير المادى الميكانيكى للأحداث ؟ !

كلا ، فهناك فى اتجاه القاع ما هو أسفل منه ، إلى باطن الأرض .
إلى عملية الاستئصال .

لا تستغربوا .

واقروا مراسيم الملكية جواتا " عودة إلى الأندلس " !! مرة أخرى .

(١) أنظر سعيد حارب فى كتابه (الخليج العربى أمام التحدى العقدى .) والغارة على
العالم الإسلامى ، والصفحات السابقة من هذا الكتاب .

obeikandi.com

شركة الإسلام

obeikandi.com

رققاً بعقولنا أيها الشادة ؟

كيف تريدون منا أن نرجع هذه العداوات جميعاً إلى سوء العرض

منا ؟؟ أو سوء الفهم منهم ؟

أهو الاعلام الغربي ؟

فأنى لدعاة الإسلام أن يخترقوا سور الصين الاعلامى العظيم هذا ؟

بينما أن " الاعلام " فى بلادنا قد تم اختراقه من هناك ؟ إن القوم فى الغرب

صنعوا لأنفسهم هذا السور ضد الإسلام بإرادة ووعى !!

فأين مسئولية البشر داخل هذا السور ؟؟

كيف يقال إنهم ضحايا هذا السور ؟؟

الم يخترق جماهيرهم أسواراً ضربت عليها من قبل ؟

وإلا فقولوا لنا :

لماذا كانت إذن ثورة البروتستانت على وصاية الكاثوليكية ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الفرنسية على الكنيسة والإقطاع ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الروسية على الإقطاع والرأسمالية ؟

ولماذا كانت إذن المقاومة الدامية فى الحرب العالمية الثانية ضد

النازية . ؟

أليس من الظلم الخبيث أن يجرى تبسيط القضية باغفال مرتكبيها

العاتى هذا ليشار بعد ذلك إلى المتهم بغير دفاع : سوء العرض منا ؟

وإذا كان من الحق أن سور " الصين " الاعلامى الغربى الحديث -

مع توابعه من أبواق الاعلام الشرقى

هو ما يقطع الطريق بين الحضارتين إلى حسن الفهم أو حسن

العرض

فإن جريمة " المؤسسة الاستشرافية " هى الرافد الأساسى لهذا السور

، وهى العامل الأساسى فى تشويه صورة الإسلام عمداً فى الغرب .

وأسألوا " إدوارد سعيد " عن ذلك ، عما أسماه " شرقنة الشرق " فى معسكر الاستشراق ، هذه الشرقنة التى وضعت الإسلام فى سجن التصور الاستشراقى منذ صلة أوروبا بالشرق حتى اليوم .

فأنى لنا أن نخرجه من هذا التصور السجين بينما لا يزال كبار المثقفين منا يُحرقون البخور تحت أقدام المستشرقين ؟

إنه بالرغم من ادعاء الغرب الموضوعية فى المنهج العلمى فقد أصبح من الواضح - طبقاً لدراسة " إدوارد سعيد " أنه فقد هذه المنهجية تماماً فى دراسته للشرق فى جميع أدواره ، إذ أصبح الشرق عنده هو الشرق الذى يصنعه لأغراض فى المعرفة والسلطة ، أو هو الشرق الذى يشرقته " على حد تعبير إدوارد سعيد " .

وكما يقول نورمان دارينيل - حسب الدراسة التى أشار إليها د. إدوارد سعيد (١) :-

لم يكن الغرب ليقبل أن ما يقول المسلمون إنهم يؤمنون به هو فعلاً ما يؤمنون به إلا بدرجة كبيرة من التناقس .

فقد كان ثمة صورة مسيحية - أى عن الإسلام - لم يتخل الغرب عن تفاصيلها - حتى تحت ضغط الحقائق الواضحة - إلا إلى أدنى درجة ممكنة ، أما خطوطها العامة فإنه لم يتخل عنها أبداً .

وكانت جميع التصويبات التى أدخلت ... مجرد دفاع عما كان قد اتضح حديثاً أنه عرضة للنقد ، أى تدعيماً لبنية طراً عليها الضعف ، فالروية المسيحية كان تُصنَّباً عالياً لم يكن يمكن أن يقوض حتى من أجل إعادة بنائه .

وقد ازدادت - كما يقول د . إدوارد سعيد - هذه الصورة المسيحية الصارمة للإسلام حدة وتوتراً بطرق لا تحصى .

كان بينها - خلال العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة تشكيلة واسعة .. وبحلول هذا الوقت كان الشرق الأدنى قد أدغم تماماً فى التصور

(١) الاستشراق : الإنشاء . المعرفة . السلطة . للدكتور : إدوارد سعيد

المسيحي اللاتيني للعالم، على نحو ما حدث في أغنية رولان، حيث تصور عبادات العرب على أنها تشمل ماهومت، وأبولو (١).
وماهومت في اللفظ الأوربي هو محمد ﷺ !!

يقول د. إدوارد سعيد: (لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشيطان وأفواج من البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية! فالنسبة لأوروبا كان الإسلام رجة مأساوية دائمة)، والأهم من ذلك هو ما يذكره إدوارد سعيد من أن أوروبا لكي تمتص هذا الخطر الكئيب بالنسبة لأوروبا حولته (شيئاً منسوجاً في لحمه الحياة الأوربية، وفي انكلترا عصر النهضة وحدها كما يورد صموئيل تشو في دراسته الكلاسيكية "الهلال والوردة" كان أي رجل متوسط التعليم والذكاء "يجد في متناوله ويستطيع أن يرى على مسارح لندن عدداً كبيراً نسبياً من الأحداث المفصلة في تاريخ الإسلام)، والنقطة الهامة في ذلك - كما يذكر إدوارد سعيد - هي أن ما ظل متداولاً حول الإسلام كان صورة معدولة مصغرة عن تلك القوى العظيمة الخطرة التي صار الإسلام رمزاً لها في أوروبا (٢).

ومن تلك الصور المعدلة وبتعبير أدق المشوهة - والتي أثرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام: قياسهم شخصية محمد ﷺ على شخصية المسيح (فقد افترض بطريقة خاطئة تماماً أن محمداً كان للإسلام ما كانه المسيح للمسيحية) ومن ذلك: (إطلاق التسمية التماحكية "المحمدية" على الإسلام).

وأصبح التصور المسيحي للإسلام ليس هو الإسلام نفسه بقدر ما هو تمثيل الإسلام للمسيحي في القرون الوسطى (٣).

(١) المصدر السابق ص ٩٠

(٢) الاستشراق: إدوارد سعيد ص ٨٩

(٣) المصدر السابق ص ٩٠

يقول د. إدوارد سعيد في عرضه لهذه القضية :

(إن الثقافات كانت دائماً تميل إلى إخضاع الثقافات الأخرى لتحولات كاملة ، متقوية إياها لا كما هي ، بل من أجل مصلحة المتلقى كما ينبغي أن تكون) ثم يؤكد أن المستشرق يفعل ذلك : (من أجل نفسه ، ومن أجل ثقافته ، وفي بعض الحالات من أجل ما يظنه مصلحة الشرقى !!) (١) .

وإذ يذهب د. إدوارد سعيد إلى أن الإسلام - بفعل الاستشراق - قد مثل تمثيلاً سيئاً في الغرب فإنه يرجع الأمر إلى طبيعة أي تمثيل . فهو بحكم طبيعته متورط متشابك منسوج مع عدد كبير جداً من الأشياء الأخرى إلى جانب الحقيقة (٢) .

وتمثيل المستشرق هنا هو تمثيل لجوهر (لا يؤمن المستشرق بوجوده ذرة من إيمان ، بل إنه يفعل ما يفعل عادة لخدمة غرض ، وتبعاً لنزعة ما في وضعيته إطارية تاريخية وفكرية ، بل حتى اقتصادية معينة) ثم يقول (والتمثيلات تشكيلات - أو كما قال رولان بارت .. التمثيلات إفساد لتشكيلات) . (والمستشرق إلى حد بعيد جداً ، يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق: تحمل طابعه المميز الخاص ، وتوضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون ، وتتحدى تحدياً واعياً وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق ، وتستجيب لمتطلبات معينة : ثقافية ومهنية ، وقومية ، وسياسية ، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية (٣)) .

وتستمر عملية التزييف للإسلام - في الرؤية الغربية - منذ العصور الوسطى إلى اليوم .

(١) المصدر السابق ص ٩٤-٩٦

(٢) الاستشراق ص ٢٧٤

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٥

يقول د. إدورد سعيد (هكذا نجد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تصديقاً عاماً لكون الجزيرة العربية على حواشى العالم المسيحي ملجأً طبيعياً للهرطقة العصاة بينما يأتي مستشرق باحث ومختص المعى زلق في القرن العشرين ليشير إلى أن الإسلام ليس فى الحقيقة إلا هرطقة آرية من الدرجة الثانية .

وفى كتاب هام " المكتبة الشرقية " لبارتلمى ديريلو - كتب فى آخر القرن السابع عشر^(١) وظل المرجع الرئيسى السائد فى أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر ، نجده يقول عن أشرف خلق الله : (هذا هو المنتحل المشهور ماهومت ، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين تسميها نحن "الماهومية" ... وقد نسب مفسرو القرآن ، وفقهاء الشريعة الإسلامية أو الماهومية إلى هذا النبى المزيف كل المدائح التى نسبها الآريون والبولسيون والهرطقة الآخرون إلى يسوع المسيح مجردين إياه فى الوقت نفسه من ألوهيته ...)^(٢) .

وهل يعرف القارئ ماذا فعل " دانتي " فى جحيمه الذى احتفل به نخبة المتقنين فى البلاد الإسلامية فى العصر الحديث ، ورأوا فيه هرماً عالياً من أهرامات الثقافة الأوربية ، وقمة من قمم الأدب الأوربى ، وأخذوا يقارنون بينه وبين رسالة الغفران ، ويعقدون الصلة بينهما دون أن يشيروا ولو من طرف خفى إلى تشويبه للإسلام ؟

إنه وضع موميتو فى الدائرة الأعمق من الجحيم .. فقبل أن يبلغ دانتي إلى موميتو فى رحلته فى الجحيم يمر عبر دوائر تحتوى على أناس أتامهم من مرتبة أدنى " حتى إذا وصل إلى موميتو فإنه لا يبقى بعده فى

(١) المصدر السابق ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٤ .

الدائرة الأعمق غير يهوذا وبروتس ، ثم يصل إلى قعر الجحيم ، حيث يوجد الشيطان ذاته (١) .

ولا نحدثك عن العقاب الذى فصله تفصيلاً فى هذه الدائرة فهو مما لا يطاق ذكره فى هذه الإشارات (٢) .

وبالرغم من أن سيمون أوكلى فى كتابه " تاريخ العرب " الصادر عام ١٧٠٨ قد أوضح دائماً (أن الإسلام كان هرطقة مستكرة) فإن كشفه لحقيقة أن الأوربيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه عن الفلسفة كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربى ، أدت إلى طرده من كمبردج عام ١٧٠٩ .

والحقد الأكبر لأوروبا ضد الإسلام فيما يقوله هنرى بيرس .. يبدأ من ظهور الإسلام إلى اليوم إذ كانت نتيجة الغزو الإسلامى الذى بدأ فى القرن السابع إزاحة مركز الثقافة الأوربية بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط الذى كان آنئذ منطقة غربية وبتجاه الشمال (٣) .

وقد كان الشرق الإسلامى بخاصة هو الذى تحدى حركة الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث .

ف (بالنسبة لأوروبا كان الشرق - باستثناء الإسلام - حتى القرن التاسع عشر ميداناً ذا تاريخ مستمر من السيطرة الغربية التى لم تتحد .. إلا أن الشرق العربى والإسلامى بشكل عام كانا الوحيدين اللذين واجها أوروبا بتحد لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية والفكرية ، ولزمن قصير : الاقتصادية أيضاً ..)

لقد كان الإسلام دون شك استفزازاً حقيقياً بطرق عديدة . فقد كان قريباً من المسيحية قريباً مقلتاً جغرافياً وثقافياً .. وكان بمقدوره أن يفاخر بنجاحات لاتنافس عسكرياً وسياسياً ، بل إن ذلك لم يكن كل شئ ، فالأصقاع

(١) المصدر السابق ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ .

الإسلامية مجاورة للأصقاع التوراتية ، بل حتى فوقها ، وأكثر من ذلك فإن قلب المجال الإسلامي كان دائماً ولا يزال الاقليم الأكثر قرباً إلى أوروبا ..

ومنذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ كان الإسلام في شكله العربى والعثمانى أو شمال الاقريقي والأسباني قد طغى على المسيحية الأوربية أو هدها تهديداً فعالاً ، ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أى أوربى - ماضياً أو حاضراً - كون الإسلام قد فاق روما اشعاعاً وسما عليها .

ولم يكن غيبون نفسه استثناء من هذه القاعدة - فى كتابه الشهير انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها - إذ يقول عن الفتح العربى الإسلامى : (غزاه هؤلاء الخلفاء الإسلاميون - ... خلفاء أغسطس وارتاكسيركس ، وأصبح الملوك المتنافسون فى الوقت نفسه فريسة لعدو كانوا لزم من طويل جداً قد اعتادوا أن يحتقروه ، وخلال عشر سنوات من حكم عُمر أخضع العرب لطاعته ٣٦ ألف مدينة وقلعة ، ودمروا أربعة آلاف كنيسة ومعبدًا للكافرين وشيدوا ١٤٠٠ جامع لممارسة ديانة محمد (!!) وعبر مائة سنة من هربه من مكة (هكذا ...) امتد نفوذ خلفاء محمد (!!) وسلطانهم من الهند إلى المحيط الأطلسى عبر الأقاليم المختلفة والثانية ..)^(١)

وفى العصر الحديث نجد نابليون يعتمد فى حملته على مصر على دراسات كونت دوفولنى - وهو رحالة فرنسى نشر كتابه " رحلة إلى مصر وسورية " فى مجلدين عام ١٧٨٧ م ، وكان فولنى يرى : أن ثمة ثلاثة حواجز فى وجه السيطرة الفرنسية فى الشرق ، وأن أية قوة فرنسية لا بد أن تحارب لذلك ثلاثة حروب : الأولى ضد انكلترا ، والثانية ضد الباب العالى العثمانى ، والثالثة : وهى أكثرها صعوبة : ضد المسلمين^(٢) .

(١) نقلًا عن غيبون : الاستشراق لادوارد سعيد ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) الاستشراق ص ١٠٧ ، ص ١١١ .

ولقد آمن فيكتور هوجو بمجد نابليون التكنيكي في حملته الشرقية ،
وجسده في قصيدة رآه فيها :

ابن المعجزة أذهل أرض المعجزات .

وملأ الناس خوفاً بجيوشه التي لم يكن لها سابق .

ونبيلاً جليلاً ظهر للقبائل المذهولة .

مثل ماهومت غربي (١) .

ويرى د. إدوارد سعيد في كتاب " وصف مصر " الذي كان الثمرة العلمية - التي يفخر بها المصريون اليوم - والذي طبع في ثلاثة وعشرين مجلداً ضخماً بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨ م ، يرى فيه (المصادرة التملكية العظيمة لبلد من بلد آخر) ، حيث انطلق الباحثون من تصور عبر عنه فوربييه في مقدمته للكتاب من أن مصر بلد (غارق الآن في البربرية) تغزوه (حضارة بلغت حد الكمال) ، الأمر الذي دفع الكاتبيين إلى أن يكتبوا من منظور سابق: فأخذوا (يشكلون من كل جزئية تلاحظ تعميماً ، ومن كل تعميم قانوناً لا يتغير للطبعة الشرقية) ، وبهذا (يزيح الوصف التاريخ المصري أو الشرقي عن موضعه من حيث هو تاريخ له تماسكه الداخلي والخاص ، وهويته ومعناه) وصار " وصف مصر " كما يقول إدوارد سعيد (النمط الأعلى لجميع الجهود التالية التي بذلت لتقريب الشرق من أوروبا ومن ثم لامتصاصه نهائياً) (٢) .

ويأتي الاستعمار الغربي بعد ذلك .

لنتعامل مع البلاد الإسلامية من منظور استعلائي يقول د. إدوارد سعيد (لاينكر بلفور (٣) في أي سياق فوقية بريطانية ودونية مصر) وهو يقول في

(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(٣) هو آرثر جيمس بلفور هو شخصية سياسية بريطانية مرموقة في أوائل القرن العشرين خدم بلده في المناصب العليا ، وكان وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء وناثياً بالبرلمان البريطاني لمدة طويلة .

خطبة له بمجلس العموم مبرراً لاحتلال مصر (إن الأمم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات لأنها تمتلك مزايا خاصة بها، ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله دون أن تجد أثراً لحكم الذات على الاطلاق ، كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين ، ولقد كانت عظيمة جداً (!!) انقضت في ظل الطغيان .) وماذا يعنى هذا فى منطق بلفور ؟ إنه يعنى أنه (خير لهذه الأمم العظيمة (!!) أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق عليها .) (١) .

ويقرر اللورد كرومر رؤية الغرب للشرق فى (أن الدقة كريمة بالنسبة للعقل الشرقى) بينما الأوربى (ذو محاكمة عقلية دقيقة ، وتقريره للحقائق خال من أى التباس ، وهو منطقى مطبوع) (٢) ، ويستمر قائلاً : (يظهر الشرقيون سذجاً غافلين ، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة مجبولين على الإطراء الباذخ والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات ، والشرقيون عريقون فى الكذب ، وهم كسالى وسينو الظن ، وهم فى كل شئ على طرف نقيض من العرق الانجلو سكسونى فى وضوحه ومباشرته ونبيله.) (٣) .

والغرب عندما يتعامل مع الشرق من هذا المنظور الاستعلائى فى بداية القرن فقد كان ذلك (لأن تراثاً من الاستشراق أقدم من تراث القرن التاسع عشر زودهم بمفردات وصور وبلاغة ومجازات ليقولوه بها) (٤) .

* * *

لقد كان لابد - تحت رعاية الأدب - أن يتجذر العداة فى قلب الأوربى المثقف - الذى يقرأ - على سبيل المثال من عيون الأدب الإنجليزى

(١) الاستشراق د. إدوارد سعيد - ترجمة كمال أبو ديب طبعة ١٩٨١ ص ٦٤ - ٦٥

(٢) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٤) الاستشراق : إدوارد سعيد ص ٧٢ .

فى القرن التاسع عشر فى رواية والتر سكوت (الطلسمان) ماجاء على لسان المسيحى - فى أيام صلاح الدين - وهو يكشف عدوه المسلم ، ما يأتى : -
(لقد اعتقدت أن عرقك الأعمى قد انحدر من سلالة الشرير الرجيم الذى ما كنتم لتستطيعوا دون عونته أن تحتفظوا بأرض فلسطين هذه فى وجه هذا العدد من جنود الله الشجعان (يقصد الصليبيين !!) وأنا لا أتحدث بهذه الطريقة عنك أنت بالذات - أيها المسلم - بل بشكل عام (!!) عن قومك ودينك ، ومع ذلك فالغريب فى نظرى ليس أنك تنحدر من سلالة هذا الشرير، بل إنك - أيضاً - تعاخر بذلك) .

وفى هذا النص - فضلاً عن أثره فى وجدان الأوربى - يظهر التعالى المتمثل فى لعنة شعب بأكمله " بشكل عام " مع شئ من الأدب النفاقى الذى يجيده هؤلاء فى عبارة " أنا لا أقصدك أنت بالذات " .

وكما يقول د. إدوارد سعيد : (إن الأمر ليبدو كما لو أن ثمة برمياً اسمه " الشرقى " تطرح فيه دون تفكير جميع آراء الغرب السلطوية ، اللامنسوية ، التقليدية حول الشرق .) (١) .

وماذا يمكن أن يترسخ فى وجدان الأوربى - المنقّف بخاصة - وهو يقرأ لعلم من أعلام الأدب الفرنسى قلوبير فى قصته " معجبة الشرق " : (منذ زمن اعتاد صوفى أن يسير فى شوارع القاهرة عارياً تماماً فيما عدا طاقية على رأسه وأخرى على عضوه ، ومن أجل أن يبول كان يرفع طاقية العضو ، فتركض النساء العاقرات اللواتى أردن الإجاب إليه ، ويضعن أنفسهن تحت قوس بوله ، ويبللن أنفسهن به .)

وهكذا كما يقول د. إدوارد سعيد يصبح الشرق معرضاً حياً للشذوذ، ويظهر هذا المنحى - حتى فى أعمال المستشرقين الجادين ، فقد قال كارل بكر : (إنه رغم أن الإسلام - لاحظ الصفة التعميمية الهائلة على حد تعبير

(١) الامستراق لإدوارد سعيد ص ١٢٥ .

إدوارد سعيد — ورث التراث الهيليني فإنه لم يكن قادراً على أن يفهم أو يستخدم التراث اليوناني الإنساني !!

وعلاوة على ذلك فمن أجل أن يفهم المرء الإسلام عليه قبل كل شيء أن يعاينه لا بوصفه " ديناً " أصيلاً " بل بوصفه شيئاً من محاولة شرقية فاشلة لاستخدام الفلسفة اليونانية في غيبة للإلهام الخلاق الذي نجده — كما يقول بكر- في أوروبا عصر النهضة .) هكذا !

كما يظهر في رؤية لويس ماسينيون — الذي قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيراً — الذي كان يرى أن أعظم رجال الإسلام — لم يكن محمداً (!!) أو ابن رشد ، بل الحلاج القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السنيون لجرأته على شخصنة الإسلام (1) .

وهو يقصد بهذه الشخصنة ذلك النوع من التجسد المسيحي للإله ، الذي يلاحظ ماسينونا أن الإسلام يرفضه (رفضاً منظماً ...) كما يقول .

وفي عرف الاستشراق — كما يقول إدوارد سعيد — (كان للإسلام معنى يمكن أن يوجد — في صياغة هي الأكثر دقة وجلاء — في رسالة رينان الأولى ، فمن أجل أن يفهم الإسلام فهما أفضل ينبغي أن يقلص إلى " الخيمة والقبيلة " (2) .)

وتستمر هذه النظرة الاستعمارية العدائية عند المستشرقين المحدثين — في منتصف القرن العشرين — تظهر فيما ذكره إتش . أي . آر . جب في سلسلة محاضراته في جامعة شيكاغو عام ١٩٤٥ ، إذ يقول : صحيح أنه وجد بين الشعوب الإسلامية فلاسفة عظماء وأن بعضهم كانوا عرباً ، غير أنهم كانوا استثناءات نادرة ، فالعقل العربي سواء في علاقته بالعالم الخارجي أو في علاقته بالعمليات الفكرية يعجز عن أن يتخلص من شعوره الجارف الحاد بانفصالية الأحداث المحسوسة وفرديتها ، وهذا بالذات — فيما اعتقد —

(1) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(2) الاستشراق ص ١٢٨ .

أحد العوامل الرئيسية التي تكمن وراء ظاهرة " فقدان الحس بالقانونون " التي اعتبرها الأستاذ ماكدونالد فرقاً مميزاً في الشرقي . وهذا هو أيضاً ما يوضح ما يجد الطالب الغربي صعوبة كبيرة في فهمه - نفور المسلمين من العمليات الفكرية العقلانية .) .

وعن أثر جب في المناخ الثقافي الأوربي من جهة فهمه للإسلام يقول إدوارد سعيد : إن تحيز جب بالرغم من معرفته الفارقة التي تظهر في كتابه ، أوسببها على الأرجح (يظل عقبة كأداء في وجه كل من يحاول أن يفهم الإسلام الحديث) (١) .

وبالنسبة لموقف الغرب من الشرق عموماً شاملاً - الإسلام بوجه خاص - لا يسعنا أن نتجاهل موقف كارل ماركس من الاستعمار الإنجليزي للهند في القرن التاسع عشر . فالبرغم من أنه كان ينعتّه بأنه (مدفوع بأكثر المصالح قذارة ..) إلا أنه كان يرى فيه رسالة إحيائية تجديدية ، يقول : (إن على انكثرا أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة : الأولى تدميرية ، والثانية إحيائية تجديدية ، افناء المجتمع الآسيوي ، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا .) .

ويرى في هذا العمل بالرغم مما فيه من تعذيب ، واقتراس لأرواح لا تحصى - يمكن أن يقاس على حكم تيمورلنك - فإنه (يهبنا متعة أعظم) على حد قول " جوته " وهو يستشهد به (٢) .

وماذا عن توماس كارليل الذي يُستشهد به في مجال الانصاف للإسلام بناء على ماكتبه في (الأبطال) عن محمد ﷺ ؟

بالرغم من أن كارليل لا يتهم محمداً بالكذب - شأن كثير غيره من المستشرقين - إلا أنه كان يرى أن محمداً هو مؤلف القرآن ، وأن القرآن - وناقل الكفر نيس بكافر - (هو خليط مهلهل مشوش ممل خام مستغلق ،

(١) الاستشراق لإدوارد سعيد ص ١٢٩

(٢) الاستشراق ص ١٢١ .

تكرار لا نهاية له ، وإسهاب وإطناب ، ومعاظلة ، خام إلى أقصى الدرجات ، مستغلق وبإيجاز : غباء فارغ لا يطاق (١) .

وفى كتاب : رحلة من باريس إلى القدس (١٨١٠ — ١٨١١) يتحدث شاتو بريان عن القرآن بأنه لم يحتو على أى " مبدأ للحضارة ، أو أى تعليم يسمو بالشخصية " ثم يتماذى المستشرق ليمجد الحرب الصليبية باعتبار أنها (لم تُدر حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من سينتصر : مذهب تعبدى هو عدو للحضارة محبذ — باطراد — للجهل ، وللطغيان ، وللعبودية — أى الإسلام — أو مذهب تعبدى يوقظ فى البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم ، ويلغى العبودية الدينية .) هكذا !! وكان هذا كما يقول إدوارد سعيد : أول ذكر مهم لفكرة قدر لها أن تكتسب سلطة خرقاء : أوربا التى تلقن الشرق معنى الحرية ، وهى — أى الحرية — مفهوم آمن شاتو بريان ، وكل من جاء بعده بأن الشرقيين — وخصوصاً المسلمين — لا يعرفون شيئاً عنه ، يقول : " عن الحرية لا يعرفون شيئاً ، من الاحتشام ليس لديهم شئ (!!) " " القوة هى ربههم " (٢) .

لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون (!!) مثل ليوبولدفون رانكه وجاكوب بيركهاردت الإسلام بعنف ، وفى كتابه تاريخ العالم (١٨٨١ — ١٨٨٨) تحدث — طبقاً لدراسة إدوارد سعيد — رانكه عن الإسلام ليصف هزيمته أمام الشعوب الجرمانية الرومانية " وفى " شذرات تاريخية " ١٨٩٣م تحدث بيركهارد عن الإسلام كشئ " بانس ، عار ، تافه ، وقد قام بمثل هذه العمليات بمهارة وحماسة أبلغ بكثير أو ستغالد اسبنغلر فى كتابه " تدهور الغرب ١٩١٨ — ١٩٢٢ (٣) !

(١) أنظر الاستشراق لإدوارد سعيد ص ١٦٩ ، ونحن لسنا بحاجة إلى الوقوف بجديّة أمام هذا

التقد الأبله ، الموجه إلى لغة القرآن من جاهل بلغة القرآن العربية ولو كان مستشرقاً !

(٢) الاستشراق ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٣) الاستشراق ص ٢١٩ .

وهكذا كان نولدكته وهو يعلن عام ١٨٨٧ : أن خلاصة عمله كمستشرق كانت تأكيد رأيه في " المنزلة الوضيعة " للشعوب الشرقية .

ويقدم جاك فاردنبرج في دراسته (الإسلام في مرآة الغرب) دراسة لخمسـة خبراء مهمين كصانعين لصورة معينة للإسلام ، وفي عمل كل منهم تظهر (درجة عالية من التحيز ، بل حتى من العدائية لدى أربعة منهم ، كما لو أن كل كاتب منهم رأى الإسلام انعكاساً لضعفه الخاص .)

وفي مجموعهم يمثل هؤلاء المستشرقون الخمسة (١) : الأفضل والأقوى في تراث الاستشراق خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠م ، وسنوات ما بين الحربين العالميتين ، وهم بالرغم من الفروق الظاهرة في دراستهم فقد كانت تلك الفروق أقل أهمية من إجماعهم الاستشراقي على طبيعة الإسلام : دونية كامنة (٢) ، وقد صاغ هؤلاء الخمسة (رؤيا للإسلام كان لها تأثير واسع على الدوائر الحكومية عبر العالم الغربي بأكمله) حيث كانت لهم وظائفهم في الإدارات الاستعمارية في الغرب (٣) .

وييلور ماكدونالد ميزة الشرقي (المسلم) في (فقدان الحس بالقانون ، فبالنسبة إليه ليس ثمة نظام مُرتب للطبيعة راسخ لا يتحزح (وإذا بدت هذه النظرة - كما يقول د. إدوارد سعيد عاجزة عن أن تفسر الإنجازات الفائقة التي حققتها العلوم الإسلامية التي بنى عليها قدر عظيم من العلوم الحديثة فإن ماكدونالد يظل صامتاً ويستمر في دعواه) (٤) .

ثم يقول إدوارد سعيد : لا شيء من هذا طبعاً جديد .. فمن شليغل إلى رينان ، ومن روبرتسن سميت إلى ت . أ . لورنس تكرر هذه الأفكار ، ويعاد

(١) هؤلاء جولديزير ، وديكن بلاك ماكدونالد ، وكارل بكر وسي سنوك هيرغرونج ، وماسينون .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٤) الاستشراق ص ٢٧٨ .

تكرارها ، فهي تمثل قراراً يتعلّق بالشرق لاحتققة من حقائق الطبيعة بأى شكل ، وكل إنسان مثل ماكدونالد وجب دخل واعياً مهنة اسمها الاستشراق فعل ذلك بناء على قرار متخذ : (إن الشرق هو الشرق .) (1) وكفى !

وكيف ينظر مستشرق شهير معاصر - فون غرونباوم - إلى الإسلام؟ إنه كما يقول د. إدوارد سعيد : (لا يجد فون غرونباوم من صعوبة فى الاقتراض بدهاءة أن الإسلام ظاهرة أحادية وحدانية ، بخلاف أى ديانة أو حضارة أخرى ، ثم يمضى بعد ذلك ليظهر الإسلام ضد - إنسانى ، عاجزاً عن التطور ، ومعرفة الذات ، والموضوعية ، إضافة إلى كونه عقيماً غير خلاق ، لا عليمأ ، وسلطوياً) .

وقد سقط فون غرونباوم فريسة لشينين فى آن واحد : المذهبيات الاستشراقية الذى ورثها ، والملح الخاص للإسلام الذى اختار أن يؤوله باعتبارها قصوراً : وهو أن فى الإسلام نظرية دينية مفصّحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً جداً ، مع ذلك ، من المسارد للتجربة الدينية ؛ ونظرية سياسية مفصّحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً من الوثائق السياسية ؛ ونظرية فى البنية الاجتماعية ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأفعال المفردنة ، ونظرية فى التاريخ ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأحداث المؤرخة ؛ ونظرية مفصّحاً عنها فى الاقتصاد وعدداً ضئيلاً جداً من السلاسل المقاسة كميأ ، وهكذا .. والحصيلة النهائية هى رؤيا تاريخية للإسلام مصاباً بالعرج كلياً بنظرية لتقافة عاجزة عن أن توفى واقعه الوجودى حقه ، أو حتى أن تكتننه فى تجربة معتقيه ، وإسلام فون غرونباوم ، بعد كل حساب ، هو إسلام المستشرقين الأوروبيين المبكرين - موحد متناغم ، مزدبر للتجربة الإنسانية العادية ، إجمالى ، تقليصى ، لا متغير (2) .

(1) الاستشراق ص ٢٧٩ .

(2) الاستشراق ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

إن وجهة نظر كهذه في الإسلام هي ، في أعماقها ، وجهة نظر سياسية ، وليست ، حتى بطريقة استبدالية لبقّة ، نزيهة متجردة .

وفي الوقت الذي ينظر فيه الكونت دوكريساتي إلى سوريا باعتبارها (شرق فرنسا الخاص) وفقاً لما أعلنه في محاضرة ألقاها على ما يسمى " التحالف الفرنسي " عام ١٩١٣ " فإنه كان يطرح - أيضاً - منظومته في أنه (إذا كان لفرنسا أن تستمر في منع " عودة الإسلام " فقد كان من الخير لها أن تحتل الشرق) ، وقد كررت هذه الآراء في مناسبات كثيرة (١) .

وفي مكان آخر في جامعة شيكاغو عام ١٩٢٤ نجد فالنتاين شيرول ، وهو رجل صحافة معروف وتجربة عظيمة في الشرق ، يقرر في منظومته الفكرية بكراهية ظاهرة : أن " المحمدية " هي أحد القوى العالمية العظيمة المسنولة عن أعماق خطوط الانقسام في العالم (٢) ويعلق د. إدوارد سعيد على هذا التناول الاستشراقي للشرق والإسلام بأنه مناقض لما يزعمه لنفسه من ثقافة تحررية ، وهو على العكس من ذلك يمثل : تصلب المذهب والمعنى الذي حوله التظاهر بالعلم إلى حقيقة ؟؟ !

ويعنى هذا المنظور الفكري الذي تبنته المؤسسة الاستشراقية عن الإسلام ، يعنى على سعيد عملي - على حد قول إدوارد سعيد (أنه حين يجاهد الشرقيون ضد الاحتلال الاستعماري فإن عليك أن تقول : إن الشرقيين لم يفهموا أبداً معنى حكم الذات بالطريقة التي نفهمه بها نحن (نحن أي الأوربيين) أو تقول مع برنارد لويس : إنه إذا قاوم العرب الفلسطينيون الاستيطان الإسرائيلي .. فإن ذلك لا يمثل إلا " عودة الإسلام " ، أو كما حددها مستشرق معاصر ذائع الصيت مقاومة إسلامية لشعوب لا إسلامية ، وهو مبدأ إسلامي أسس في القرن السابع ...) هكذا .

(١) الاستشراق صـ ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق صـ ٢٥٨ .

وهكذا (إذ يحتاج الشعور ضد الاستعمار العالم الشرقى بأكمله ... فإن المستشرق يلعن ذلك كله لا بوصفه إزعاجاً فارغاً فقط ، بل بوصفه إهانة للديموقراطيات الغربية ، وبينما تواجه العالم قضايا حاسمة ذات أهمية عامة بالغة فإن الصورة الكاريكاتورية للشرق تستغل من قبل سياسيين يستقون زاهم العقائدى (الأيدلوجى) لا من الإخصائيين " التكنوقراطيين " نصف المتعلمين فحسب ، بل من المستشرق الفائق العلم كذلك (!!) ويحذر خبراء العالم الخرافيون فى وزارة الخارجية الأمريكية من مخططات العرب للاستيلاء على العالم ، ويوصف الصينيون الغادرون (!!) والهنود نصف العراء (!!) والمسلحون السليبيون بأنهم حداث ستنهش عطايانا (١) .

ولم تكن آراء المستشرقين هذه مجرد سطور فى بطون الكتب ولكنها ذات أثر ملموس فى وجدان الرجل العادى فى الغرب .

يقول د. إدوارد سعيد (تطغى هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبى ، فالعرب - مثلاً - يتصورون راجبى جمال ، اراهيبين ، معوقى الأنوف ، شهوانيين شرهين ، تمتل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية ، وثمة دائماً افتراض متربص بأن المستهلك الغربى رغم كونه ينتمى إلى أقلية عددية ذر حق شرعى إما فى امتلاك معظم الموارد الطبيعية فى العالم ، أو فى استهلاكها أو فى كليهما ، لماذا ؟ لأنه بخلاف الشرقى إنسان حق ... إن غريباً أبيض ينتمى إلى الطبقة الوسطى يؤمن بأنه امتياز طبيعى له لا أن يدير شؤون العالم غير الأبيض وحسب ، بل أن يمتلكه كذلك لمجرد أن العالم الأخير تحديداً ليس بالضبط إنسانياً تماماً بقدر ما "تحن" كذلك (٢) !!

وهكذا يستقطب القطيع المؤمن فى أعماقه بما يقوله أرنست رينان (إنه لمن الأفضل أن يكون المرء مخطئاً مع أمته المخطئة كلها من أن يكون على درجة عالية من الصواب مع أولئك الذين يكشفون لها الحقائق القاسية. (٣) !!

(١) الاستشراق ص ١٣٠ - ص ١٣١ .

(٢) الاستشراق لإدوارد سعيد ص ١٣١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٦ .

بين سوء القصد وسوء العرض :

يقول د. إدوارد سعيد :

(إن كل أوربي كان - فيما يمكن أن يقوله عن الشرق عنصرياً عرقياً امبريالياً ، وإلى درجة كلية تقريباً : عرقى المتمركز ...

إن المجتمعات البشرية - أو على الأقل الثقافات الأكثر تقدماً ، نادراً ما منحت الفرد شيئاً عدا الامبريالية والعنصرية ، والمتمركز العرقى للتعامل مع الثقافات الأخرى ...

إن الاستشراق كان جوهرياً مذهباً سياسياً مورس إرادياً على الشرق ، لأن الشرق كان أضعف من الغرب) (1) .

إن كمية هائلة من الكتب دونها الغرب عن الشرق (حوالى ستين ألف كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبها الغربيون بين عام ١٨٠٠ - ١٩٥٠) أفلم يكن منهم رجل رشيد ؟ اللهم إلا أن نقر مع إدوارد سعيد أن (الاستشراق من حيث هو جهاز ثقافى هو عدوانية ونشاط ومحاكمة ...)

وهل تغيرت هذه العدوانية على مر العصور ؟

يسجل إدوارد سعيد تطور حركة الاستشراق فيما بين القرن التاسع عشر والعشرين فيحصره فيما يسميه الاستشراق الظاهر ، أما ما وراءه مما يسميه (الاستشراق الكامن .) فهو اجماعى مستقر لا يكاد يتغير ، وهو نادراً ما يشكل فرقا فى المضمون فقد ارتبطت الأطروحات حول التخلف والاحتطاط الشرقيين (!!) بالأفكار السائدة - فى القرن التاسع عشر - حول الأسس الحيوية (علم الحياة) للثقافات العرقى (2) . وما دام الشرق ينتمى إلى عرق منحط محكوم فقد كان ينبغى له أن يحكم من قبل الاستعمار الغربى

(1) الاستشراق ص ٢١٥ ، ص ٢١٦

(2) الاستشراق ص ٢١٧ .

ويتوفر المثل التقليدي لهذه النظرة في كتاب جوستاف لويون الصادر عام ١٨٩٤ (القوانين النفسية لتطور الشعوب .) (١) .

ولم تكن النظرة العرقية وما تستتبعه من دونية الشرق واحتقاره مذهباً فكرياً معزولاً في ذهن زعمائه ، ولكنها كانت في ثقافة أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا (تكاد تكون غير متنازع عليها) (٢) .

وكانت قد تغلغت إلى أعماق الأشياء ، وأكدت أنه ليس ثمة مهرب من الأصول ، ومن الأتباط التي أفرزتها هذه الأصول ، وقد أثر أصحاب هذه النظرة تأثيراً كبيراً على المستوى العام وأوصوا بسياسات عامة في ضوء تقريراتهم (٣) ، وعلى سبيل المثال ، وانطلاقاً من هذه النظرة نجد كاتباً وسياسياً شهيراً قضى جانباً كبيراً من حياته بين العرب صديقاً حميماً لهم - لورنس ، نجده يقول في موضع من كتابه " أعمدة الحكمة السبعة " (.. لم تكن جميع الأقاليم الخاضعة للإمبراطورية البريطانية لتساوى لدى صيبي انكليزياً واحداً ميتاً .) (٤) . ونجد آخر مثل جورج أورول يقول عن زيارته لمراكش عام ١٩٣٩ (من الصعب دائماً أن تصدق أنك تسير بين كائنات بشرية إن للبشر وجوهاً سمراء ، ولديهم عدد كبير منها ، هل هم حقاً اللحم نفسه الذي هو أنت ؟ هل لهم حتى أسماء ؟ أم أنهم مجرد مادة سمراء لا تمايزة ، أفراد بقدر ما للنحل أو حشرات المرجان أفراد ؟! إنهم ينبعون من الأرض ، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات ، ثم يغوصون عاندين إلى أكوام المقابر التي لا أسماء لها دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا ، حتى التبور نفسها سرعان ما تتحل رجوعاً إلى التراب) (٥) .

(١) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٢) الاستمراق ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

ثمرات شرقة الإسلام في العصر الحاضر :

وكان من ثمرات هذه الشرقة في العصر الحاضر كما يدلنا على ذلك د. إدوارد سعيد :

أن العربي ظهر بعد حرب ١٩٧٣ في كل مكان شيئاً أبعد تهديداً وأشد خطراً ، وبرزت بانتظام رسوم ورقية تصور شيخاً عربياً يقف وراء مضخة للبنزين ، لكن هؤلاء العرب كانوا بجلاء " ساميين " : وكانت أنوفهم المعقوفة بحدة ، والنظرات الشذراء الخبيثة المشربنة على وجوههم تذكيراً واضحاً (لجمهور غير سامي في معظمه) بأن " الساميين " كانوا يقبعون تحت كل مشكلات الغرب ومصاعبهم التي كانت في هذه الحالة بشكل رئيسي النقص في البنزين .

وهكذا ، فإذا كان العربي يحتل مكاناً يكفي لجذب الانتباه ، فإنه يحتله كقيمة سلبية ، فهو يعاين كمخرب لوجود إسرائيل والغرب ، أو في نظرة أخرى للشئ ذاته ، كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل عام ١٩٤٨ . وإذا كان هذا العربي ذا تاريخ على الاطلاق ، فإن تاريخه جزء من التاريخ الممنوح له (أو المستلب منه ، فالفرق ضئيل) من قبل التراث الاستشراقي ، وفي مرحلة تالية ، التراث الصهيوني . لقد عوينت فلسطين - من قبل لامارتين والصهاينة الأرائل على حد سواء - صحراء خالية تنتظر التفجر بالازدهار ، وكان يفترض أن القلة من السكان الذين كانوا فيها رُحل لا وزن لهم ولا حق فعلياً في الأرض ، وأنهم ، لذلك ، دون واقع ثقافي أو قومي ... وإلى جانب عدائه للصهيونية ، فإن العربي مزود بالنفط . وتلك خصيصة سلبية أخرى ، إذ أن غالبية المسارد المقدمة عن النفط العربي تساوى بين المقاطعة النفطية في ١٩٧٣ - ١٩٧٤ (التي أفادت منها رئيسياً شركات النفط الغربية ونخبة عربية حاكمة صغيرة) وبين غياب أي مؤهلات أخلاقية عربية لامتلاك مثل هذا الاحتياطي النفطي الهائل . والسؤال الذي يطرح في الأعم الأغلب ، دون أي من التحسينات الاستبدالية اللبقة المعتادة ،

هر لماذا يمتلك بشر كهؤلاء العرب حق إبقاء العالم المتطور (الحر ، الديمقراطي الأخلاقي) مهدداً ؟ ومن أسئلة كهذه ينبع الاقتراح المتكرر بأن تقوم قوات الجيش البحرية - الأمريكية بغزو حقول النفط العربية .

في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي إما بالفسق أو بالخدر والخديعة المتعطشة للدم . ويظهر منحلاً ، ذا طاقة جنسية مفرطة ، قديراً ، دون شك ، على المكيدة البارعة المراوغة لكنه ، جوهرياً ، سادي ، خؤون ، منحط ، تاجر رقيق ، راكب جمال ، صراف ، وغد ، متعدد الظلال : هذه بعض الأدوار التقليدية لعربي في السينما . وكثيراً ما يرى العربي القائد (للصوص المغيرين ، والقراصنة ، والعصاة " من السكان الأصليين ") يزجر في وجه البطل الغربي المأسور والفتاة الشقراء (وكلاهما مفعم بالصحة والعافية) : " رجالى سيقتلونكما ، لكنهم - يحبون أن يتسلوا أولاً " ، وينظر نظرة تنقط خبثاً وشبقاً فيما يتكلم : وهذا حظ شائع من قدر شخصية شيخ فالنتيون .

وفي أشرطة الأخبار ، أو أشرطة الأخبار المصورة ، يظهر العرب دائماً بأعداد ضخمة : لا فردية ، لا خصائص أو تجارب شخصية . وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعيين ، أو الإشارات والحركات اللاعقلانية (والشاذة حتى اليأس ، بالتالي) . وخلف هذه الصور جميعاً يترصد خطر الجهاد المهدد . والعاقبة : الخوف من أن المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم .

تنتشر الكتب والمقالات بانتظام عن الإسلام والعرب ، دون أن تمثل تغييراً اطلاقاً بالقياس إلى المباحثات الزعاف التي سادت القرون الوسطى وعصر النهضة . ولا يصدق على أية مجموعة عرقية أو دينية سوى العرب أن أى شئ يمكن عملياً أن يقال أو يكتب عنها دون تحد أو احتجاج . لقد قال دليل المسابقات لعام ١٩٧٥ ، الذى وضعه طلاب الإجازة فى كلية كولومبيا ، عن برنامج اللغة العربية ان كل لفظة من لفظتين فى اللغة ذات علاقة ما بالعنف ، وان العقل العربى كما " ينعكس " فى اللغة تبجحى دون انقطاع .

وبلغت مقالة قريبة العهد كتبها إيمييت تيرل في مجلة هاربر درجة أعلى من القذف والتجريح والعنصرية العرقية ، إذ طرحت منظومة تقول إن العرب أساساً قتلة وأن العنف والخديعة محمولان في المورثات العربية . ويكشف مسح دراسي بعنوان " العرب في الكتب الدراسية الأمريكية " معلومات خاطئة إلى الحد الأقصى من الادهاش ، أو بالحري ، تمثيلات على درجة قصوى من الغفظة ، لمجموعة عرقية - دينية . إذ يؤكد أحد هذه الكتب " أن القلة من أهل هذه المنطقة العربية يعرفون أن ثمة طريقة أفضل للحياة " ، ثم يتابع سائلاً ببراعة سلبية ، " ما الذى يربط بين شعوب الشرق الأوسط ؟ " والجواب ، المعطى دون تردد ، هو " أن الرباط النهائى هو عداية العرب - وكرههم - لليهود وللأمة الإسرائيلية " . وجنباً إلى جنب مع مثل هذه المادة ، ثمة ما يلى ، فى كتاب آخر ، عن الإسلام : " بدأ الدين الإسلامى ، المسمى الإسلام ، فى القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثرى من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد . وقد ادعى أنه نبي . ووجد أتباعاً بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا لكى يحكموا العالم " . وتتلو هذه النتفة من المعرفة نتفة أخرى مثلها فى دقتها : " بعد موت محمد بقليل ، سُجّلت تعاليمه فى كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام " (١) .

أثر الاستشراق على النخبة الثقافية العربية المعاصرة :

يقول د. إدوارد سعيد (إن الاستشراق ، رغم إخفاقاته ، ومصطلحه المعازل الذى يثير الشفقة ، وعرقيته التى لا تكاد تحجب ، وجهازه الفكرى الرقيق رقة الورق ، يزدهر اليوم بالأشكال التى حاولت أن أصفها . وبالفعل ، فإن ثمة ما يدعو إلى القلق فى كون تأثيره قد انتشر إلى " الشرق " نفسه : فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية (وباليابانية ، واللهجات الهندية

(١) الاستشراق ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

المختلفة ، واللغات الشرقية الأخرى ، دون شك) تمتلئ بتحليلات من الدرجة الثانية لـ " العقل العربي " ، والإسلام ، وأساطير أخرى ، يقوم بها كتاب عرب . وقد انتشر الاستشراق أيضاً فى الولايات المتحدة الآن وقد أضافت الأموال والموارد العربية رهجة فتنة لا يستهان بها إلى " الاتشغال " التقليدى بالشرق الهام استراتيجياً . والحقيقة هى أن الاستشراق قد استوعب بنجاح من قبل الامبريالية الجديدة ، حيث لا تفقد منطلقاته السائدة ، بل إنها لتثبت وتؤكد ، المخطط الامبريالى المستمر للسيطرة على آسيا .) .

يقول د. إدوارد سعيد (فى الجزء الوحيد من الشرق الذى أستطيع أن أتحدث عنه بشئى من المعرفة المباشرة يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والامبريالية الجديدة أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق . فالعالم العربى اليوم كوكب تابع ، فكرياً ، وسياسياً ، وثقافياً للولايات المتحدة . وليس هذا فى ذاته بشئ يدعو إلى الرثاء ؛ غير أن الشكل المحدد بعلاقة التوكيكية نفسه يدعو إلى ذلك . خذ بعين الاعتبار أولاً أن الجامعات فى العالم العربى تدار بشكل عام تبعاً لنسق ما موروث عن ، أو مفروض مباشرة من قبل ، قوة مستعمرة سابقة . وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسى قبيحة حتى الرعب تقريباً : صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة ، جهاز تدريس مدرب تدريباً سيئاً ، ومرهق بالعمل ، ويتلقى رواتب سيئة ، تعيينات سياسية ، الغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدمة ولوسائل البحث العلمى ، وأهم من ذلك ، الاقتتار إلى مكتبة واحدة لاتقة فى المنطقة بأسرها . وفيما كانت بريطانيا وفرنسا قد سيطرتا على الآفاق الفكرية فى الشرق بفضل أهميتهما وراثتهما ، فإن الولايات المتحدة هى التى تحتل تلك المكانة الآن ، بصورة تؤدي إلى النتيجة التالية : وهى أن القلة من الطلاب الذين يبشرون بخير والذين ينجحون فى الارتقاء عبر النظام التعليمى يتلقون التشجيع للحضور إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم العليا . وفيما يظل صحيحاً أن بعض طلاب العالم العربى ما يزالون يذهبون إلى أوروبا للدراسة ، فإن الغالبية

العظمى يأتون إلى الولايات المتحدة ، ويصدق هذا على طلاب ما يسمى الدول الجذرية بقدر ما يصدق على الدول المحافظة كالمملكة العربية السعودية والكويت . وإلى جانب ذلك ، فإن نظام الرعاية في عالم الدراسة ، والأعمال ، والبحث العلمي يضع الولايات المتحدة في موضع الأمرة ذات السلطة الكلية على الأمور ؛ فالمصدر مهما بلغ من عدم كونه مصدراً حقيقياً ، يعتبر الولايات المتحدة . ثمة عاملان يجعلان الموقف حتى إلى درجة أبعد وضوحاً نصراً للاستشراق . ويقدر ما يسع المرء أن يصدر تعميماً كاسحاً ، فإن الميول المحسوسة للثقافة المعاصرة في الشرق الأدنى تسير على هدى النماذج الأوروبية والأمريكية ، وحين قال طه حسين عام ١٩٣٦ عن الثقافة العربية إنها أوروبية ، لا شرقية ، فقد كان يسجل هوية النخبة الثقافية المصرية التي كان هو أحد أعضائها المتميزين تمييزاً كبيراً . ويصدق الشيء ذاته على النخبة الثقافية العربية اليوم ،) .

(والنتيجة المتوقعة لهذا كله هي أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين ، ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التي ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية على مسامع جمهورهم المحلي . ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمى أن يستخدم الباحث الشرقي تدريبه الأمريكى ليشر بالفوقية على أبناء وطنه لأنه قادر على " تدبير " النظام الاستشراقى وفهمه واستخدامه ؛ أما فى علاقته بمن هم أسمى منه مكانة ، المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين ، فإنه سيبتى " المخبر الذى ينتمى إلى السكان الأصليين " . وهذا هو بحق دوره فى الغرب ، إذا كان من حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد إنهاء تدريبه المتقدم . ومن ثم . فإن معظم المساقات الأولية فى اللغات الشرقية تُدرس من قبل "مخبرين أصليين " فى جامعات الولايات المتحدة اليوم ؛ وكذلك فإن القوة ضمن النظام (فى الجامعات والمؤسسات ، وما إليها) هى حصرياً تقريباً فى

أيدى غير الشرقيين ، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطى الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة .

ثمة إشارات أخرى كثيرة من أنماط مختلفة إلى الكيفية التي يتم بها الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقي بقدر ما يتم عن طريق الضغط الاقتصادي المباشر الخام من قبل الولايات المتحدة ، وأنها لصدمة موقظة أن نجد ، على سبيل المثال ، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات المتحدة ، فليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة الولايات المتحدة ، وهي أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلافاً في المنطقة . وأسوأ من هذا ، لا يكاد يكون ثمة من معهد ذي مكانة حتى متواضعة في الشرق مكرس لدراسة الشرق <خفسه> . غير أن هذا كله ، في اعتقادي ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق : وهو حقيقة < طغيان > الاستهلاكية في الشرق . فالعالم العربي أو الإسلامي عامة عالق في صنارة نظام السوق الغربي . وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط ، المورد الأعظم للمنطقة ، قد امتص امتصاصاً كاملاً ضمن اقتصاد الولايات المتحدة . ولا أعنى بذلك وحسب أن شركات النفط العظيمة واقعة تحت سيطرة النظام الاقتصادي الأمريكي ؛ بل أعنى أيضاً أن قاعدة عائدات النفط العربية ، كى لا نقول شيئاً عن التسويق ، والبحث ، والإدارة الصناعية ، قائمة في الولايات المتحدة ، وقد جعل هذا من أثرياء النفط العرب عملياً مستهلكين هائلين للصادرات الأمريكية . والنقطة التي أثيرها هي أن العلاقة علاقة وحيدة الإتجاه ، تمثل فيها الولايات المتحدة زبوناً مختاراً لعدد ضئيل جداً من المنتجات (النفط ، واليد العاملة الرخيصة ، رئيسياً) ويمثل العرب مستهلكين شديدي التنوع لعدد هائل من منتجات الولايات المتحدة ، المادية والعقائدية .

وقد كان لهذا عواقب كثيرة . ثمة عملية تسوية هائلة للذوق في المنطقة ، متجسدة لافي الترانزستورات ، والجينز الزرقاء ، والكوكا كولا

وحسب ، بل كذلك فى الصور الثقافىة للشرق التى توفرها وسائل الاعلام الأمريكية وتستهلكها دون تفكير جماهير التلقاى الضخمة . وليست المفارقة الضدىة المتجسدة فى أن يعتبر عربى نفسه " عربياً " من النمط الذى تنتجه وتسوقه هوليوود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير إليه .

وهناك نتيجة أخرى هى أن اقتصاد السوق الغربى وتوجهه الاستهلاكى خلقاً (ويخلقان بنسبة متسارعة) طبقة من المتعلمين يوجه تشكيلهم الفكرى نحو إرضاء حاجات السوق . فثمة تأكيد كبير على الهندسة ، والأعمال ، والاقتصاد ، مما هو واضح ؛ لكن طبقة رجال الفكر الانتلجنسيا هى ذاتها عنصر مساعد فيما تعتبره الاتجاهات الرئيسىة التى أطفئت فى الغرب .

وقد رسم دور هذه الطبقة وصيغ لها بوصفها طبقة " مُحدثته " ، أى أنه تمنح الشرعية والسلطة المرجعية لأفكار حول التحديث والتقدم والثقافة تتلقاها من الولايات المتحدة بصورة رئيسىة . ويقوم الدليل الباهر على هذا فى العلوم الاجتماعىة . وهكذا فإذ ينجلي كل شئ ثمة تقبل مشارك فى صور الاستسراق ومذاهبه . وثمة أيضاً تعزيز قوى جداً لهذا فى التبادل الاقتصادى والسياسى والاجتماعى : فالشرق الحديث - بإيجاز - يشارك فى شرقنة نفسه (¹) .

* * *

وهكذا يتأكد لدينا نتيجة لهذه الدراسة الغذة للدكتور إدوارد سعيد ما كان يتردد من قبل فى الصدور حول دور الاستسراق فى تشويه صورة الإسلام ، ويصبح لدينا اليوم يقين - نتيجة لتلك الدراسة - بأن الاستسراق ما هو إلا مؤسسة تقوم بدور تاريخى كجهاز مناعة تعضى - أو قل إن شئت - تعضون " - فى بنية الحضارة الأوربية وتغلغل فى أعصابها وشرائينها

(¹) الاستسراق ص ٣١٩ - ٣٢٢ .

وعظامها ليرد عنها أى اقتراب إسلامى ، مغلقاً منافذ تلك اللبنة دون أى شعاع حقيقى من الإسلام .

حتى ما يود البعض منا أن يعتبره تحسناً أو إنصافاً فى أداء بعض المستشرقين ، فإنه حسب دراسة إدوارد سعيد (استراتيجيات لإعادة التصرف بـ " المادة " ضمن " الحقل " وتوزيعها .) إنه يودى إلى تغييرات ضمن الحقل ثم يعين على خلق وضع جديد ، مثمناً يودى إدخال بوصلة جديدة على سطح توجد عليه عشرون بوصلة إلى اهتزاز البوصلات جميعاً . ثم إلى استقرارها فى تشكيل جديد قادر على الاستيعاب (1) .

أما خروج مستشرق ما على الحقل ليعلن إسلامه فإنه يصبح طبقاً لجهاز المناعة ذلك سبباً كافياً لإخراجه — حسب مواصفات المؤسسة الإستشراقية — من زمرة البحث العلمى المعترف به فى المؤسسة ليصير أى شئ غير كونه مستشرقاً " رصيناً " .

وهكذا تقوم المؤسسة الاستشراقية بالدور الفعال — لا فى فهم الإسلام وتقدمه للغرب المسحى " موضوعياً " كما كان يفترض — ولكن فى زرع الألغام فى الحقل الذى يفصل ما بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية .

(1) المصدر السابق ص ٢٧٥ .

obeikandi.com

**الحل الإسلامي
لمشكلة الحضارة
بين التعدد والصراع**

obeikandi.com

هل يمكن أن يكون الحل في انتصار الحضارة التي تقوم على العرقية وتعمل وفقاً لمسياسة التطهير العرقي ، والإبادة البشرية والتصفية الجسدية : في الأندلس ، وفي أمريكا " الهنود الحمر " وفي أفريقيا (مئات الملايين في تصدير السود إلى أمريكا ...) في التفرقة العنصرية ، وأخيراً في شرق أوروبا ، : البوسنة والهرسك ... وبلاد البلقان ، وحلف الناتو الذي أعلن عدوانه للإتجاه إلى الإسلام ^(١) . ثم في شرقنة الإسلام ؟

تلك حضارة غيبية لا ترى أبعد من وقع أقدامها .

كيف لهؤلاء أن يطهروا العالم من المسلمين ؟

مليار مسلم ؟

هنا تظهر عناية الله بالمسلمين في التكاثر وزيادة النسل . إنهم لا يبتعدون في سياستهم تلك عن غياب السياسة الإسرائيلية التي تظن أنها يمكن أن تسحق مائتي مليون عربي .

فمعايير المقاومة في الإسلام مكفولة :

أ - القنبلة الذرية ، في مواجهة القنبلة الذرية .

ب - المقاومة الخالدة في بقاء قدس أقداس هذه الحضارة " القرآن " .

ج - بشارة الرسول ﷺ " بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ " .

إن الاستمرار في هذا الغيباء لن تجنى منه الإنسانية غير المواجه والالام .

ولكنه - أبداً - لن يحقق أغراضهم في إزالة " الآخر " وتلك عمق أعماق سياستاتهم ...

مقارنة :

إننا نقول لقيادات الحرب في صفوف الحضارة الغربية .. لقد وسعناكم في إطار أهل الكتاب .

^(١) انظر تصريح الأمين العام للحلف في صفح ١٩٩٥/٢/٣ .

ففى أى إطار وسعّمهونا أنتم ؟ وبماذا سميتمونا ؟

هل وسعتنا حقوق الإنسان الصادرة عنكم وهى حقوق مشروطة
بالتخلص من حركة النهضة الإسلامية ؟

هل وسعتنا حريّتكم الفكرية ، وهى تحتضن مقولات الفسق والفجور
فى روايات سلمان رشدى وما أشبهه ؟

ولا تسع بحثاً علمياً حول مصداقية إبادة اليهود فى المانيا كتبه روجيه
جارودى ؟

هل وسعتنا علمانيّتكم ، وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره
لا يأخذ بالعلمانية ؟

هل وسعتنا ديموقراطيتكم وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام
باعتباره أخذاً بشريعة إلهية ؟

هل وسعنا نظامكم العلمانى - فى شرق أوروبا - البوسنة والهرسك
وبقية المسلسل ؟

هل وسعتنا نظمكم التربوية وأنتم الذين لا زالت مناهجكم تلقن
تلاميذكم الأكاذيب والأحقاد ضد الحضارة الإسلامية - كما هو ثابت فى
الدراسات التى تناولت هذا الموضوع فى مصادركم نفسها ؟

ما الحل ؟ وأين التعدد ؟

إذا أردنا أن نجيب من منطلق قيمى بحث فلا بد أن نتفق على أن الحل
الوحيد هو فى انتصار الحضارة التى تسمح للأخر بأن يوجد على ظهر هذه
الأرض .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تتعايش فى ظلها الأقليات
والطوائف .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن للثقافات المختلفة أن تعبر
عن ذاتها ؟

الحل هو في انتصار الحضارة التي تسمح للأفكار المختلفة بأن تعبر عن ذاتها في كافة أرجاء المعمورة ولو وقفت منها (حضارتنا الرائدة) موقف النقد والنكران .

الحل هو في انتصار الحضارة التي تؤمن بأنه " لا إكراه في الدين " .
الحل هو في انتصار الحضارة التي تمتثل أمر الله في قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

الحل هو في انتصار الحضارة التي تؤمن بقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. ﴾ .

الحل إذن هو في انتصار الحضارة الإسلامية ، فهي التي انطوت - مع الخلاف - على السماحة ، ومع الإتكاف على التسامح ، : نظرياً كما انطوت على ذلك عملياً ...

ولأمر ما - وربما كان هذا الأمر هو ما نحن فيه ... ضمن الإسلام (لأهل الكتاب ، موقعاً حصيناً في المجتمع الإسلامي .

وقام المسلمون على تقدير هذا الموقع ، ولم يخامرهم قط خاطر التطهير العرقي ، أو إبادة " الآخر " ...

لقد كانت الحضارة الإسلامية وعاء انصهرت فيه القوميات والجنسيات والعروق والشعوبيات ، ابتداء من أقصى الشرق في الصين ، مروراً بفارس ، والشرق الأوسط وتركيا والأندلس ...

وكما يقول شيخ الأزهر الراحل (الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق إبراهيم جاد الحق رحمه الله) في رسالة له إلى مؤتمر برلمان " أديان العالم " الذي انعقد في شيكاغو في الفترة من ٢٨/٨ إلى ٤/٩/١٩٩٣ .

(إن المسلمين لم يعترفوا في تاريخهم الطويل ما يشينهم .

فلم يضطهدوا شعباً ولم يُكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام .

ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقي أو تفرقة عنصرية ، ولم يحدث أن أبادوا أتباع دين من الأديان الأخرى . وليس أدل على ذلك من أن البلاد التي دخلت في الإسلام - منذ كان وفي العصور المتعاقبة وللآن - مازال بها الجمع الغفير من الديانات الذين كانوا بتلك البلاد حين دخلها الإسلام ، ولو كان الحكم الإسلامى وقتذاك قد مارس ما يمارسه أصحاب الديانات الأخرى في العصر الحاضر ما بقى في بلاد المسلمين من أتباع الأديان الأخرى أحد (١) .

وأنظر إلى ما يقوله الأستاذ الدكتور أحمد طريين - أستاذ التاريخ الإسلامى عن معاملة الدولة العثمانية للمسيحيين :

(يبدو أن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع ، يرى أن الدولة العثمانية أساءت معاملة غير المسلمين ، وخاصة بعد أن ضمت إليها العالم العربى الإسلامى ... وبالمقابل فإن عديداً من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم فى قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لا بد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الأوربية المسيحية المعادية للعالم الإسلامى ، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة - السابقة - بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيى الولايات العربية أشد وضوحاً من تسامحهم مع مسيحيى البلقان الذين كانوا فى بلادهم أغلبية تتأمر مع النمسا . كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم ، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فانتظموا فى سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ، وكانوا معهم فى تعاطف وود ، بل إنهم برزوا فى ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الأوربيين ، وتكونت منهم طبقة برجوازية غنية ، وها هى ذى سجلات المحاكم الشرعية فى مختلف الحواجز العربية تشهد بذلك ...) (٢) .

(١) مجلة الأزهر - ديسمبر ١٩٩٣ .

(٢) أنظر المجلة العربية للعلوم الإيمانية التى تصدر عن جامعة الكويت العدد ٣١ ص ٢٦٩

إن عجز الحضارة الأوربية المعاصرة عن دور التسامح هذا هو الذى يشكك فى إمكانية التعدد الحضارى بعيداً عن مظلة الإسلام .

إن الإسلام هو المرشح الوحيد لوراثة الحضارة المعاصرة - لمصلحة الإنسانية - وليقوم بنفس الدور الذى قام به فى وراثة الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية من قبل .

هناك كانت الوراثة بأن ضم العمل إلى العلم .

واليوم فإن الوراثة بأن يضم الإيمان إليها .

وهذا لا يعنى القول بأن الحضارة الإسلامية تتحصر ضمن قيود ضيقة ، أو أنها خاضعة دائماً لتفاصيل ما تم إنجازه فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

إن أقصى ما نقرره من قيود للحضارة الإسلامية لا يتعدى الثلاثية التى أشرنا إليها : العلم والعمل والإيمان .

وهى بعد ذلك - ومع ذلك - تقبل أن تتم إنجازها فى صور متعددة ولكنها متقاربة ، فيصبح التعدد هنا كالتنوع داخل الجنس الواحد ، فيخرج إلى الوجود حضارة إسلامية ينتجها العرب ، كما يخرج إليه حضارة إسلامية ينتجها الفرس ، أو حضارة إسلامية ينتجها العثمانيون ، أو حضارة إسلامية تنتجها أوروبا .

إن الجمع بين أركان الحضارة الثلاثة التى هى العلم والعمل والإيمان هو مجمع تحديات المستقبل بالنسبة للإنسان على هذه الأرض ، وهنا تبدو لنا ملامح نصرة الإسلام فى مستقبل صنع الحضارة خصوصاً إذا لاحظنا بعض الظواهر التى تبدو أمامنا منذ الآن ومن أهمها :

١ - أن العالم المسيحى صائر حتماً إلى الأخذ بوجهة نظر الإسلام عن المسيح ، وهذا ما تؤكدته الدراسات التى يقوم بها اللاهوتيون الكبار فى أوروبا .

٢ - أن الملحدين في العالم يتحولون - كما نرى - إلى الأخذ بدين من الأديان ، إذ هم يتناولون إلهادهم كدين وهم سوف يلتفتون حتماً إلى إجراء المقارنة بين ديانة الإلحاد ، وبين الأديان الأخرى ، وليس غير الإسلام دين يصلح لمخاطبة هذه العقول .

٣ - أن عالم القوة النووية صائر حتماً - كما نرى - إلى فقدان القدرة على استخدامها ، ولو تعجل في استخدامها لكان ذلك ضد مصلحة العالم الذي يملكها إذ تتساوى حينذاك في الخراب جميع الأقدام .

٤ - أن العالم الإسلامي صائر حتماً إلى ولادة جديدة ، وهذا هو مصدر الفرع عند كهنة الحضارة الغاربية .

والخطر الذي يتهده هو خطر التعجل ، تعجل الولادة قبل أوانها من ناحية ، وخطر الغفلة عما تستوجبه ساعة الميلاد من ناحية أخرى ، وعليه أن يستفيد من درس العروبة في معالجاتها الخاطئة ، لقضية الخلافة الإسلامية عند سقوط الدولة العثمانية أولاً ، وقضية الوحدة العربية ثانياً ، وقضية فلسطين ثالثاً ، وقضية النظام العالمي الجديد أخيراً .

ويبقى عبء خطير على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يعدوا أنفسهم لهذا الميلاد بالتخلص من سلبياتهم ، ومنها ما يقع فيه بعض فصائلهم من خشونة في الأسلوب تارة ، ومن نظرة تشاؤمية للمستقبل تارة ، ومن فقر في القدرة على الاجتهاد تارات .

ورائة الحضارة

obeikandi.com

إذا كانت الصين - فيما يقال - تتطلع بمليارها إلى وراثّة هذه الحضارة المتداعية ، فقد يتساءل البعض منا : - لم لا تتطلع بدورنا - إن صلح أمرنا كما يقول الدكتور رشدي فكار ^(١) - إلى مكاننا في هذه الوراثة ؟ بمليارنا الإسلامي الذي يرتكز على الوطن العربي والذي يمتد إسلامياً في آسيا وأفريقيا ؟

الأخرون المتطلعون إلى هذه الوراثة يتفاوتون في أرتكازهم على وحدة الأرض ، أو وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة العقيدة ، بينما نحن المسلمين نرتكز على هذه الركائز جميعاً ؟

لقد فاتت الفرصة على اليابان لوراثة هذه الحضارة فيما يقوله هارولد لاسكي (لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولكن يبدو أنها لم تستقد شيئاً سوى ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصادي ، لقد اكتشفت " المهارة " في لندن وبرلين وباريس ونيويورك ، ولكنها - أي اليابان لم تكتشف مثلهم الهدف الكبير الذي تهب له هذه المهارة..) ^(٢) .

ويتفاعل بعض المفكرين الغربيين بوراثّة الإسلام لهذه الحضارة المتداعية ، إذ يقول روجيه جارودي (لقد سبق للإسلام أن أنقذ امبراطوريات متهاقنة من الفناء في القرن السابع الميلادي .) .

ولعل هذا هو ما يبيته القدر للإسلام مرة أخرى أن يرث الحضارة المعاصرة ليعطيها ما قد فقدته : هدف الإيمان أن تكون الحضارة لله .

يقول الله تعالى : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . ﴾

١٢٨ الأعراف .

^(١) أنظر كتابة " نهاية عمالقة ص ١٣٧ - ١٣٩ . "

^(٢) محنة النديموقراطية لهارولد لاسكي ج ١ ص ١٢ - ١٣ .

ويقول تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ١٠٥ الأنبياء .

ويقول تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ١٣٧ الأعراف

ويقول تعالى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا ﴾ ٢٧ الأحزاب .

ويقول ﷺ (بدأ الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدأ) .

لكن السؤال الذى ينبغى أن يلح على المسلمين اليوم هو : إذا كان الإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ هذه الحضارة أو لوراثةها ، فهل المسلمون المعاصرون مرشحون أيضاً لهذه الوراثة ؟

إنه كما يقول بعض المفكرين - الدكتور يحيى الرخاوى - لا يمكننا ذلك (ونحن لا نفعل إلا أن نكرر حياتهم على مستوى أفضل وبمحتوى أضحل) .

(ولن يغير من الأمر شيئاً أن نضيف إلى نموذجهم نشاطاً خاصاً بالجانب الوجدانى القلبى المتدين .. وليس بديلاً ما ندعيه من ممارسات إسلامية لمجرد أن اللافتة تعلن شيئاً مختلفاً عن لافتتهم ، نمارس تحته ما يملونه علينا .

ولن ينفعنا أن نشق أنفسنا إلى نصفين : فنعيش حياتنا العلمية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علمانى تمت صياغته هناك . ونعيش حياتنا الروحية بتسليم عاطفى حالم .

ولن يصلح من شأننا أن نستغل الحماس للإسلام لتجميع طاقات الشباب لتحقيق تغيير يودى فى النهاية إلى الوجه الآخر من نفس الحضارة العلمانية التى نشيع قرب غروبها) .

ثم يستمر قائلاً : (ليس بالضرورة أن يكون تأزم حال المسلمين يعنى تأزم الإسلام .

فكما نكرر دائماً : " أزمة جيل ليست بأزمة مصير " و " أزمة نخبة ليست بأزمة أمة " (١) .

غير أن المسلم المرشح لهذا الدور لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكي ، والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها أو جمع قنات موائد الكبار من الصواريخ وأسلحة الدمار .

وإنما يتحقق مستعيداً لذاته ، وبنائه ، كإنسان في عصر عزت فيه إنسانية الإنسان .

فهو بملياره الذي نطمع أن يتحلى في سلوكه بالقرآن ، يمثل الإنسان المتوازن المتعادل روحاً وجسداً ونفساً .. المتعادل في مشيئه وإنفاقه ، بل حتى في صوته الخاشع لربه ، ومنه يستمد الهدى والنور .

الإنسان الذي يعيد إلى التصميم الهندسي للحضارة كما أراه الله : جانب الإيمان في ثلاثيته : العلم والعمل والإيمان .

هذا المسلم بسلوكه المتميز يمكنه أن يكون هو أداة التصحيح لمواريث هذه الحضارة ، بإرجاعها إلى طريق " الحضارة لله " .

الإسلام ممثلاً في عصر النبوة بالوحي الخالد ، والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة في تراث المسلمين هو الذي يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء في كل مكان ، كما يشق طريقه إلى العمالقة في حضارة الغرب ، بعد أن أعيتهم الطرق ، طالبيين النجاة لعقل كرمه الله ، وإنسان أسلم وجهه لله .

ولكن ذلك كله لن يكون إلا وفق سنن الله في الكون .

(١) الأهرام ١٦/١/١٩٨٤

إن العناية الإلهية تظللنا في جميع أدوار حياتنا ، ولكن من العناية الإلهية أيضاً أن يكون هذا الكون خاضعاً لنظام ، وأن تكون الحضارة خاضعة لقوانين .

إنه لا عناية بغير النظام .

ولا رحمة بغير القوانين .

قوانين الله في التغيير ، قوانين الله في النصر ، قوانين الله في الحصول على الدنيا ، قوانين الله في عموم البلاء ، قوانين الله في التلاؤم بين الحكام والمحكومين ، قوانين الله في نمو المال ، قوانين الله في أكل الحلال ، قوانين الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قوانين الله في قبول الدعاء أورده ... !

كيف نطلب الرحمة بإبطال القوانين ؟

كيف نطلب الرحمة بالارحمة ؟

فكيف نتصور إذن أن يكون مسلمو اليوم هم ورثاء هذه الحضارة ؟

ما الحكم في قوم كلما وجه إليهم أمر للتقيد مصمصوا شفاهم قائلين : عفواً نحن غير قادرين ؟

أليس من قوانين الله - منطقياً - أن يتم الاستغناء عنهم ؟

ما الحكم في قوم كلما واجههم تكليف إلهي مصمصوا شفاهم قائلين : نحن غير قادرين ؟

إذا دُعوا إلى التخلّص من الربا قالوا : إن كان حراماً فتحن غير قادرين ؟

إذا دُعوا إلى الجهاد قالوا : إن كان واجباً فتحن غير قادرين .

إذا دُعوا إلى الوحدة قالوا : خير ، لكن نحن غير قادرين ؟

إذا دُعوا إلى الأخوة الإسلامية : قالوا : جميل ، ولكن نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى تصحيح في سياسة التعليم يربط فيه بين العلم والعمل والإيمان قالوا : تحيرنا بين النظريات والبرامج ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : صححوا علاقتكم بالدنيا وأجعلوها في أيديكم لا في قلوبكم قالوا : تلك صوفية ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : أحرصوا على الحرية ، وأسلخوا اليها من باب العبودية لله وحده .. قالوا : تلك مثل عليا وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى شيء من الاقتصاد يتعدون فيه عن الإسراف والتبذير وتمويل رأسمالية العدو ، قالوا عادات ، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى قلب المعادلة السائدة بينهم بين اللهو والجد ، خذوا أنفسكم بالجد ، وأجعلوا اللهو هامشاً محدوداً قالوا : تلكم دعوة إلى الكآبة وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى تحرى الحلال في مآكلهم ومشربهم والبعد عن الحرام والمشتبهات ، قالوا : وكيف نعيش ؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا : وما شأننا ؟ نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى الأخذ على يد الظالم قالوا : صعب ، ونحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى مخاصمة الفسق في الفن وفي الاعلام .. قالوا : إزاي؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب ، قلبوا شفاهم ، وقالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى تربية أولادهم على طاعة الله .. قالوا نحاول ، ولكن نحن غير قادرين .

وإذا دُعوا إلى العفة وما يوصل إليها من الكف عن إثارة الشهوات ،
نظروا بجانب من عيونهم إلى نظريات في علم النفس ، وعلم الجمال ،
وقالوا: نحن غير قادرين .

وإذا دُعى علماءهم إلى الجهر بكلمة الحق ، قالوا : نحن غير
قادرين .

وإذا دُعى حكامهم إلى عدم موالة الكافرين .. قالوا : حسناً ، ولكننا
غير قادرين .

وإذا دُعوا إلى التكافل المعيشى مع الذين يموتون جوعاً بالآلاف ،
قالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعوا إلى التضامن مع المستضعفين من إخوانهم الذين يذبحون
بالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين .

بماذا شهد هؤلاء على أنفسهم ؟

هل ينطبق عليهم رفع التكليف في قوله تعالى .. ﴿ لا يكلف الله نفساً
إلا وسعها ﴾ .

أليس معنى الآية ابتداء أن الله لا يكلف إلا بالوسع ؟ فهم ماداموا قد
كلفوا فمعنى هذا أنه في وسعهم ؟

وعلى هذا الأساس يكون قولهم نحن غير قادرين محض كذب
وتهرب ؟ !

وهل ينطبق عليهم رفع التكليف إذا كانوا هم أنفسهم مساهمين بدرجة
أو بأخرى في صنع الخطأ أو الخطيئة ؟

أو مستفيدين بدرجة أو بأخرى . باستمرار هذا الخطأ أو الخطيئة ؟

أليست الأغلبية اليوم دائرة بين هذا وذاك .. بين صانع ، أو مستفيد ؟

قد يقال :

المشكلة ترجع إلى تضارب الأفكار ، واختلاطها ، وعلى سبيل المثال:

يقول بعضنا : العلمانية ، كلها شر ، ولكن آخرين يرفعون إمكانية التضامن معها ، والتصالح مع بعض فصائلها .
هكذا فإن الرؤية قد أصيبت بالاختلاط .
حسناً ، فمتى يكشف الحق ؟
هنا : لا بد من الابتلاء .
قد يقال :

المشكلة ترجع إلى اختلاط في البشر ، حيث لا يظهر فيهم مؤمن خالص ، من مناقق خالص ، من كافر خالص .
ويقول بعض هؤلاء : تحتاج الحركة الإسلامية إلى فصل هذه الفصائل ، وإلا وقعت الحركة في شر النتائج ، شر الفشل .
حسناً : فمتى ينفصل هؤلاء من هؤلاء ؟
هنا : لا بد من عذاب ينزل للتمييز ، فالمؤمن ينجلي كما ينجلي الذهب في النار ، وغيره يتساقط كما يتساقط التراب ، أو كما يتساقط الغبار .
هنا لا بد من سريان قانون التمييز .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون . ﴾ ٣٧ الأنفال .

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . ﴾ ٥٨

قد يقال : التمييز موجود ، فنحن نعرف الطريق ، ونعرف من هم أربابه ، ولكننا غير قادرين .

غير قادرين على فعل شيء .

والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

فعندئذ يقال :

وإذا كنتم قد خرجتم من إطار المكلفين فما معنى وجودكم ؟

إنكم بذلك قدمتم شهادة الإزالة .

هنا : لابد من عذاب ينزل - لا لمحض الابتلاء ، ولا لمحض التمييز

ولكن لغرض المحق ، والإزالة كما تمت إزالة أقوام من قبل .

منطقياً : ماذا ينتظر لقوم كلما واجههم تكليف إلهي مصمصوا شفاهم

قائلين : لا حول ولا قوة إلا بالله ، نحن غير قادرين ؟؟ وهم قد أخرجوا إلى

الوجود أصلاً من أجل القيام بهذه التكاليف ؟

أليس المعقول أن ينتظروا الإزالة ؟

أما حسابهم يوم القيامة فشيء آخر .

أليست الإزالة هي الحل الوحيد في شأنهم ؟

ليأتى قوم غيرهم .

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾

إن هؤلاء - نحن - أكثر الأجناس على وجه هذه الأرض ترشيحاً

للإزالة ، لعدة أمور :

أولاً : لأننا إنما خرجنا على ظهرها وارتفع ذكرنا فيها لمهمة خاصة

هي القيام برسالة الإسلام .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر ﴾ فعندما تتخلى عن هذه الرسالة - ونحن نكاد نفعل - يزول

سبب وجودنا ، ونذهب شرانم بددا ، في طرائق قdda .

ثانياً : لأننا لو بقينا وانتصرنا على أعدائنا بنصر الله لكان فى ذلك نصر للزيف الذى نحن فيه ، وإعلاء لشأنه ، وهذا لا يمكن أن يكون ، لأنه لا يجوز فى حق كماله تعالى .

ثالثاً : لأننا بخلاف أعدائنا ، لا نحن عملنا من أجل الدنيا كما يعملون ، فننال وعد الله كما ينالون ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ .

ولا نحن عملنا من أجل الآخرة ، كما عمل بناء الأمة الإسلامية ، فننال وعد الله كما نالوا ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ﴾ .

إننا أولى الناس بالإزالة لولا ...

لولا ضمان من وعد الله لبقية تبقى .

هى التى سيوكل إليها بناء الحضارة الإسلامية ، ووراثة الحضارة الغربية المتداعية .

فى رواية لمسلم بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : " إبنى سألت ربي، لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة (1) .. وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (2) " وإن ربي قال : يا محمد إبنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك : ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً . () .

(1) أى كارثة عامة

(2) أى جماعتهم